

شيرة النساء في العلم الاسلامي

بمكة

صاحبة اسماء اميرة الصيرة الجليلة قدسية ضين

تقديم

عبدالعزیز بن محمد الخالجي

الطبعة الاولى

١٣٣٤ هـ - ١٩٢٤ م

حقوق اعادة الطبع محفوظة للمعرب

الناشر

حسين بن حسين

صاحبة المكتبة اميرة بن صالح العتيدي بصر

طبع بمطبعة السخاوة

Amira

Sabiha

الاميرة صليحة

ملكة قرطبة

— ٩ —

الاميرة صبيحة

ملكة قرطبة

الفصل الاول

عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله ، ثامن ملوك بني أمية في الاندلس ، ناصية معروفه في التاريخ الاسلامي وعلم من اعلام الاندلس ، ما كاد يجلس على عرش الخلافة حتى بذل ما في وسعه لترقية المملكة واعلاء شأنها ، الى ان وصلت اعلى درجات الرقي وفاقت مما لك اوربا مدنية وحضارة في المدة التي تقلد انناها الحكم وتقدر بنصف قرن

عاش هذا الخليفة القدير وله امل واحد ، سعى لادراكه وتحقيقه طول الحياة . ذاك الامل : هو مجد الاندلس وعظمتها وقد كانت همته اكبر من ان تكفل ، فواصل ليله بنهاره مجدا ، مجتهدا ، حتى صير قرطبة جنة فيحاء ، تنخلها القصور الشاهقة والمساجد الكبيرة والمدارس المالية والمستشفيات العديدة ودور الكتب الحاسوبية لانفس الآثار والمآثر . أراد ترقية العلم في ربوع بلاده ، فأحضر لها العلماء والحكام من سائر ممالك العالم (١)

(١) الامير على

ورغب كذلك في زينتها وبهرجتها فلم يأل جهده في تخطيط الشوارع وغرس الاشجار وحفر الترع والجدول الموصلة للأنهار وان هي الا عشية وضحاها حتى كانت قرطبة تنافس بغداد في أبهة الحضارة وأسباب الرفاهة والعمران ، وأصبحت موضع إعجاب كل من يقصدها من الزوار بحسن نظامها وبديع ترتيبها . واجتمعت كلتهم على انها عروس المدائن ومعدن الظرف ومنبع انواع الكمال (١) وان التاريخ لن ينسى أياديه البيضاء على العلوم والفنون وتروجه الزراعة والتجارة في تلك البلاد الجميلة التي أضاءت نفوس أهلها من رجال ونساء بأنوار العلم والمرفان (٢) حتى أصبحت ترفل في تلك الحلل الجميلة ، حلل المدنية في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في ظلمات الجهل ، تتلمس لنفسها سبيل النور والضياء

وجه همته الى تنظيم الجيش وبناء الاساطيل (٣) وبذا أصبح صاحب الكلمة العليا في مياه البحر الأبيض . ولم يكتف بأكان محروزة في ميادين الحرب والقتال بل تطلع أيضا الى التغلب في ميادين السياسة فالبث أن تل فيها قصب السبق وعقدت له بها لوية الظفر والفخار

أكبر المسلمون من كافة أنحاء العالم ما كانوا يرونه .

(١) دوزي (٢) دوزفيت (٣) الامير على

زائريه من أهل الفن في الدهشة والاعجاب ، لانه كان أجل من أن يوصف وأبدع من أن يصور . كان مملوءاً بضروب الصناعات وصنوف البرجة وأنواع الزينة من الداخل والخارج بحيث لا تقع العين الا على آية من آيات الفن أو منظر من المناظر الرائعة الجديرة بالاجلال والتقدير

كان ما يراه الانسان خارج القصر لا يقاس بما تقع العين داخله ، فقد كان لكل زخرفة من زخارفها حالة جذابة خاصة بها . وبالاجمال فهو من تلك القصور التي لا نسمع عن نظائره الا في اقصيص الجان وأساطير الاولين

كانت الحديقة المحيطة بالقصر من أجل البساتين اليلغة غاية السكال في التنسيق والترتيب ، تزينها أبسط زمردية خضراء وأشجار باسقة شاخة بأنقها في الفضاء وأحواض رخامية تحيط بها صنوف شتى من الورد والازاهير

وقد كان في القصر مائتان والف عمود من أنقر الزخام وقاعة استقباله مزينة بالذهب مطروزة باللؤلؤ والابواب من خشب الأرز، منقوشة نقشا عجيبا للبلبل الممدغاية في الاتقان والاحكام كأنها افترعت في حجر الب . وكان بها برك عظيمة يجري منها الماء الصافي الى الأبدان غاميل غريبة الشكل والصنعة تكاد ايلة تعجز عن تصورها

أمارات الذكاء ودلائل العدل مع ماكان عليه من حسن التدبير ووفرة الجاه وقوة السلطان وعزة الملك ، فمظمت منزلة قرطبة في أعينهم وأصبحت بناية القلب النابض لاجزاء الممالك الاسلامية الاخرى المنتشرة من أقصى المعمورة لاقصاها

كان عصر نهضة وزمان تجدد واتباه وكان للعلوم والفنون وقتئذ تجارة نافقة وللاندراس من هذه النهضة نصيب وافرحيث كانت مطمحاً لانظار الشعراء والعلماء وقبله أهل الادب وغيرهم من الوجوه ورجال الفضل من كل صوب وحذب (١)

قال عبد الرحمن الناصر بخاطب ابنه الحكيم : « كلما طال عهدي قصر زمانك يا بني » وقد طال حقيقة عهد عبد الرحمن وكان ذلك لجبد الاسلام وعظمته لانه من احسن الازمنة التي عادت على الامة الاسلامية بالخير العميم ، بل أقول بأنه كان بلامرء العصر الذهبي للاسلام المتوج تاريخه بأكليل المجد والفخار

حسبك حسنة من حسنات عبد الرحمن جامع قرطبة الشهير والقصر المعروف ببית الزهراء (٢) ذلك القصر المشيد على مقربة من قرطبة في أجل بقعة من بقاع الاندراس لقد عجز المؤرخون عن وصف هذا القصر ، وأوقع قلوب

(١) دوزي (٢) تاريخ الاندراس لضيا باشا

سبباً في نفث أنظار العلماء والأدباء إليه واكتسابه محبة الشعب ونواله حمد أهل المشرق واستحسان الغرب هذا إلى تخليد اسمه في طبقات التاريخ بط . يمكن محوها إلى أبد الأبدين ولقد توفي سنة وخمسين هجرية وهو في الثانية والسبعين من عمره . أن سائح خمسين حجة في حكم بلاده كانت قرطبة عند وفاته تحتوي على ١٣٠ ألف مسكنا وثلاثة آلاف جامعا وخمسين مستشفى وثمانمائة مدرسة وتسعمائة حماما وستمائة خانة ، بينما كانت المكتبة الملوكية تضم بين جدرانها كتباً يتراوح عددها بين ٤٠٠ ألف و ٧٠٠ ألف مجلد (١) إلا أنه ترك ما هو أبلغ من ذلك وأعظم شأنًا فقد ترك بين أوراقه الخصوصية جملة حكيمة ضربت بها الأمثال وسارت بذكرها الركبان ، هي قوله : « أحصيت أيام حياتي التي عشتها في صفو وهناء لا تظللها سحب الاكدار فاذا هي أربعة عشر يوماً فقط »

ملك عظيم دانت له الرقاب وتوفرت له اسباب العز والجاه عاش مبجلًا ، معزًا ، ترمقه الميرون بالمهابة وتحفه الانظار بالاجلال ولم يتمتع من أيام حياته الطويلة الا بجزء ، غير — أربعة عشر يوماً فقط . . . فما أبلغ هذه الحكمة السامية التي تتضاءل أمامها جلائل الماني

(١) المقرئ

قال (المقرئ) يصف أحد مجالس هذا القصر :

« سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، المتلونة أجناسه وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك ، وجملت في وسطه اليتيمة التي أهداها (لاون) ملك القسطنطينية إلى الناصر ، وكانت قواميد هذا القصر من الذهب والفضة وفي وسطه صهريج مملوء بالزئبق . وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انقذت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوار من الرخام الملون ذي البللور الصافي وكانت الشمس تدخل تلك الابواب فيصرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . (١) »

كل زينات هذا القصر كانت بدلية موقفة وكل النقوش التي تزينه دقيقة ومحكمة أما الحوائط فقد كانت لوحات فنية نفيسة والاعمدة شفافة رقيقة ذات قوام جاذب وجماع هذه النفائس كان ينبعث منها نور وجلال يتضاءل أمامها أبهة قصر الخلدن الذي بناه الرشيد في بغداد

قصر الزهراء تاج أعمال عبد الرحمن الناصر ، شيده لتخليد اسم زوجته المحبوبة فزاد بذلك من شأن قرطبة وأهميتها وكان

(١) تنجح الطيب للمقرئ

جميلاً نفذ إلى أحماق قلبه وملك كل جارية من جوارح نفسه،
فبحث عن مصدره وعلم أنه صوت فتاة جذابة الملامح جمال
صورتها يضارع حسن صوتها (١). تلك الفتاة هي: صبيحة التي
ملكنت على الخليفة حواسه وجعلته يتطرف معها إلى حد الجنون
في الحب، هاجراً مكتبته ناسياً كل شيء في العالم حتى كتبه وقد
كانت أحب الأشياء لديه.

كثيراً ما يصادف الإنسان في حياته وجوها جميلة تترك
جاذبيتها أثراً في النفس لا يمكن نسيانه إلى الأبد وصبيحة كانت
أحدى هذه الخوارق، ذات جمال ساحر ونفس جذابة وروح
حلوة ذات لطافة وودقة ففتنت الخليفة بخفة روحها وجميل صورتها
فقد أسير اللائظ مكبلاً بقيود الهوى

كانت الفتاة على شيء من الأدب، أدب العلم والنفس وكانت
تسامر الخليفة بأحاديثها الحلوة وفكاهاتها المذبة فلا يطيق مفارقتها
طول يومه، أما الليالي فكانا يقضيانها في حداثق الزهراء الخيالية
تحت ظلال أشجارها المطرة جنباً جنب وهي تسكب في نفسه
كثراً من صوتها الرخيم (٢) يديه سكرًا وهياماً.

كان لصبيحة جسم شفاء ذات طراوة تحاكي نداوة الفجر
ولذا كان الخليفة يدعوها على الدوام باسم (صبح) فهل أراد بهذا

(١) المسمودى

الفصل الثاني

مات عبد الرحمن وبموته طوى بساط ذلك الزمن الزاهر
وفتح للأندلس أبواب عهد جديد هي: أيام الحكم المستنصر بالله
كان الحكم قبل تقلده منصب الخلافة عالماً وقوراً محبوباً
من الشعب، وفي مصاف أكبر الأمراء في عهده (١)، ذا دراية
بتدبير الملك وفنون السياسة، خاض غمار الحرب بنفسه واشترك
في إدارة دفة الأحكام على عهد أبيه ولذلك قابل أهل الأندلس
خبر تولىته وهو في الثامنة، الأربعين من عمره بظاهر الارتياح
والسرور، إذ كان خبر خلف لخبر سلف

كان رحمه الله من حمة العلوم وأنصار الفنون، يعتبر
الكتاب من أحسن الندماء ولذلك لا اعتكاف في مكتبته الخاوية
لنفائس الأنوار الساعات الطوال يقطع أوقات فراغه من العمل
بالدرس والمطالعة وكان للشعر والموسيقى في نفسه منزلة لا تقل عن منزلة
الكتب. وبالإجمال كان موسيقى الطبع، مفرماً بكل أمر معنوي
نفيس، نخله نعمة المود والنأي ويستهيوي لبه الصوت الموسيقي
الزنان. سمع ذات يوم وهو يروض النفس في حداثق بيت الزهراء
تلك الحداثق الوارفة الظلال المزينة بالورد والازهار، صوتاً

(١) المسمودى

المقام اللائق بها

وبعد عامين أى فى سنة ثمانية وأربعة وخمسين هجرية
ابتمس لها الدهر مرة ثانية فولدت للخليفة غلاماً آخر سمي هشام
فنهضت منزلتها فى نفس الحكم وازداد حبه لها الى حد بعيد
المدى لأن مولوده الجديد ضمن له حصر الملك فى أولاده
وذريته

كان الحكم يعد نفسه اذ ذاك أسعد مخلوقات الارض . له
زوجة محبوبة هي : صبيحة ، وله من زينة الحياة الدنيا كل ما انصبو
اليه النفوس : مال وبنون . فلم يبق شئ بعد ذلك يرغب فيه ،
فكان يخصص مقداراً من وقته لادارة أمور المملكة والجزء
الاكبر من أوقانه كان مصروفه الى مشغوليته المحبوبة لنفسه
وهى المطالعة واقتناء نفائس الكتب . وبذلك أخذت مكتبته
تزداد قدراً (١)

كان الخليفة عبد الرحمن ملكا جليل القدر وحاكما منقطع
القرين . أما ابنه الحكم فكار عالم مجل العلم ومحترم أهل الفضل
ولا يحجم فى سبيل نصرة العلم والادب عن تضحية أمور دولته
فانهزت صبيحة هذه الفرصة وأخذت تشارك زوجها فى ادارة
الحكومة ولم يعض على ذلك زمن كبير حتى كانت تشغل مركزاً

(١) ابن خلدون

النداء المصغر المحبوب ، ذكرى تلك السهرات المسكرة والاقوات
الذيذة ؟ أم انه أراد بذلك أن يعيد الى ذاكرته أحلام الفجر
المشوبة بحمرة الشفق ؟ لا أدري وانما يجيل لى أنه اذا ذكر
اسم صبيحة لأى انسان تمثلت له صورة متوردة وتجسمت فى
مخيلته مناظر تلك الحداثق العطرة ، حداثق الزهراء فتجيا فى
ذهنه صورة الاندلس بخواطرها العذبة وذكرانها اللذيذة بكل
ما فيها من لطف وظرف

أراد الله أن يتم نعمته على صبيحة فرزقت من الخليفة غلاما
كان موضع سروره وفرحه ، كأنما ملك به الدنيا بأسرها ، ومبعثا
لسمادة الوالدة حيث كانت هذه الحادثة سبباً فى عقد نكاح الخليفة
عليها ، وقد اشترك الشعب فى أفراح الخليفة وعده هذا العام ، عام
٢٥٢ من الهجرة النبوية ، أحسن الاعوام فى تاريخ الاندلس
فتهاقت الشعراء على مدح المولود وتخليد ذكره وهرع الكبار
والاعيان لتهنئة ملكهم والقيام بفروض التبريك ، حتى أن وزير
الحكم خاطب الخليفة بقوله : « ان هذا المولود الشريف ، سليل
ملوك بنى أمية ليسطع علينا بنوره منذ الآن فلماذا لا نشرق علينا
كذلك الاميرة صبيحة التى منها هذه الشمس النيرة ؟ » (١) ومنذ
ذلك اليوم توطن مركز صبيحة وعرف أهل القصر قدرها فاحلوها

١ دوزى

الفصل الثالث

أخذ عهد الحكم عمر براحة وسكون وظلله رايات الأمن والسلام لأن أمراء الفرنجة الذين ناؤوه في مبدأ حكمه كانوا قد نبهوا من كثرة ما لقوه من الهزائم المنكرة والاندحارات التتالية فلم يروا بداً من إعادة السيف إلى نصابه والاخلاد إلى السكينة والمسالمة . وقد كان لهذه الحالة أثر بين في توطيد أسباب الراحة في أطراف البلاد الإسلامية ، مما جعل المسلمين من أهل الاندلس يرتعون في بحبوحة الأمن داعيين خليفتهم بالعمز والاقبال . أما الخليفة نفسه فقد انكب على مكتبته ويزيد في نفائسها ، حتى بلغت قائمة ما فيها من الكتب ثمانية وأربعين . مجلداً . قنع بهذه الحالة ولذا له أن ينعوس في ليج من العلوم لا حدها ، ناسياً كل شأن من شئون الحياة اللهم الا مقابلة جماعات العلماء الوافدين اليه من سائر أطراف الممالك الإسلامية لاسيما من بغداد ودمشق والقاهرة ، فازدادت بذلك شهرة قرطبة وأخذت جامعاتها تنافس الازهر والمدرسة النظامية في أهميتهما العلمية .

يقولون ان العلم ليس له جنس ولا يمت الى وطن أو دين بأصرة قرابة أو نسب . ولذا كان الخليفة يشجع كل عالم ويأخذ بيده من اي جنس كان ، لا فرق لديه بين مسلم او نصراني ، وكثيراً

سامياً في ميداني السياسة والادارة وتمكنت من اظهار ذكائها الفطري وقدرتها على ممارسة الاحكام بشكل ادهش رجال الدولة . وكان الحكم من أولئك الذين يقدرون الاشياء قدرها ويقيمون الامور اوزانها ففطن الى مزايها وزوجته في مسائل الحكم والادارة فأشركها في الحكم علنا ووسع المجال لدائرة نفوذها وتأثيرها

كانت صبيحة في اول أمرها صاحبة السلطان المطلق على عقل الخليفة وقلبه ثم أصبحت بعد ذلك بفطنتها وذكائها تملك روحه وما زالت تتدرج في مراتب السكال حتى صارت الملكة النافذة الكلمة في كل بلاد الاندلس



صادف وجوده وسط جماعة من الناس أصبح هدفًا لانظارهم .
 واذا سر على قوم جذب اليه التفاتهم . كنت ترى في عينيه بريقًا
 من صور الآمال وفي حاله وطوره وكلامه حالة خاصة به . كانت
 تظهر عليه امارات عظيمة ترك الناظر اليه في دهشة وحيرة ،
 فكل من رأى هذا الشاب يحكم لاول وهلة وبدون ان يعرف
 اصله بأنه احد أولئك الذين سيرتفع شأنهم في بلاد الاندلس
 وبحوزون مقامًا ساميًا في مناصبها العالية
 هذا الشاب هو محمد بن ابي عامر ، نخر الاسلام والشرق
 الذي أصبح بعد حين وزير الاندلس الملقب بالنصور .

ما جادت يده بالعطايا والهبات لكتاب قيم او مجلد نفيس اما
 الكتب النادرة التي لا يرى سبيلًا الى مشترائها فكان يأمر بنسخها
 واخذ صورها وبهذه الوسيلة أصبحت مكتبة قرطبة شعلة نور
 يستضيء العالم بأنوارها

في ايامه وصلت الآداب العربية الى ذروة عزها وسامق
 مجدها كما نضجت علوم كالفلسفة والبلاغة والشعر ، وكما تعددت
 الطرائق وسبل التحسين في علمي الجغرافيا والتاريخ وفني الرصد
 والكيمياء . اما دروس الفقه والتشريع فكانا يدوسان بشرح
 وتطويل وبهرع الطلبة الى ورود مناهلها باشتياق كبير من كل
 حذب وصوب فقد كان عدد الطلبة الذين أموا حلقات دروس
 الفقه في ذلك المهد يتجاوز عدة آلاف . اجل ان جامع قرطبة
 هو مهبط النور والهدى . فيه كان يعظ ابو بكر بن معاوية ليملا
 قلوب الموحدين بأنوار الدين الاسلامي بينما كان ابن رشد وابن
 سينا والسمودي واحمد بن سعيد الحمداني وغيرهم من اقطاب
 الحكمة وأولياء الحجى يزبنون عهد الحكم ومن وليه من
 الاخفاء بنار قرائحهم وانوار معارفهم .

في هذا المهد الزاهر ، الساطع بأشعة الحكمة ، كنت ترى
 طالبًا منكبًا على دروس الجامعة بكتيبته ، يميل اليه الطلبة ويخدمه
 الاساتذة . كان هذا الطالب شابًا ذكي الفؤاد جميل الصورة ، اذا

ثم انتبه فجأة لنفسه بعد حين وخاطبهم قائلاً :

«سأكون يوماً ما حاكم هذه الدولة فليسر دلى كل منكم آماله وأمانيه والوظائف التي يصبو إليها منذ الآن فاني محقق مطالبكم عند نوال بغيتي ان شاء الله » فتضاحك رفقائه وأخذوا يذكرون له - على سبيل المازحة - الوظائف التي تطمح اليها أبصارهم .

بعد هذه الحادثة بزمن قصير طلب ابن أبي عامر الى قصر الخليفة قائماً الاقدار أرادته مداعبته، وكان الحكم رافياً في انتخاب كاتب بارع لزوجته صبيحة فطلبوا بضعة أشخاص ممن توسموا فيهم القدرة على هذا العمل ليكونوا على أهبة الاستعداد لمقابلة الخليفة لهذا الغرض وبينهم ابن أبي عامر ، الصديق الموروف من خدم القصر وحاشيته .

ولقد كانت أجوبته بين يدي الخليفة من أحكم الاجوبة وأدلها على الفهم والروية فنال قصب السبق وفاز على المتقدمين معه الى تلك الوظيفة بدرجة فائقة لفتت اليه أنظار الاميرة نفسها . فقد كانت له حالة خاصة به تجذب انظار المتطلع اليه لاول وهلة (١) ومع ذلك فالخليفة التبس عليه الامر وتردد مبدئياً في قبول شاب جميل كهذا لتلك الخدمة وفي النهاية لم ير بداً من أن يكل امر الاختيار الى الاميرة نفسها صاحبة الشأن

١ دوزى

الفصل الرابع

محمد بن عبد الله بن أبي عامر بن المولد ، ينتسب الى قبيلة بني معاذ الشهيرة (١) واسلافه من مشاهير الابطال ذوي الذكر العاطر في تاريخ الفتح الاندلسي .

كان شاباً نسطاً ذكي الفؤاد ، جميل الصورة . تلوح عليه امارات العزم والاقدام (٢) ويرى المتفرس في اساور وجهه رجلاً لا يعرف للباس معنى ، لا يعزم على امر حتى يعصي فيه غير هيب ولا وجل اثم دروس الجامعة ثم احترف بعدها مهنة الكتابة واتخذ لنفسه خانوئاً صغيراً امام القصر السلطاني لكتابة المرائض وتنميق المظالم وتحرير الشكاوى وقد كان له بيت نفوس خدمة القصر المتردين عليه مكانة رفيعة واشتهر بينهم ونبه ذكره عندهم حتى كنت ترى خانوته على صغر حجمه غاصاً بهم . الا ان نفسه كانت تطمح الى ما فوق ذلك ، كان يفتش عن سعادته في ركن واحد من اركان الامل ، جعله نصب عينيه ليله ونهاره ، فقد كان يسمى جهده الى الاتحاق باحدى الوظائف في القصر . جلس ذات يوم في خانوته يحدث أصدقائه ومعارفه كالمتاد فاذا به وقد غاص في لجج من الافكار وطار محلقاً في سماء الامل

١ دوزى ٢ تاريخ مسلمي الاندلس لدوزى

ابن ابي عامر يحور اوامرها ويقوم بتبليغها الى مختلف الجهات .
كان الحكم خليفة البلاد اسماً اما السلطان الفعلي فكان بيد
صبيحة ، فزينة الاندلس ورفا هيتها والنظر في شئون الشعب
واحتياجاته وتعليم اولياء العهد وتنقيف اذهانهم وتربية مداركهم
كل هذه أمور كانت تقوم بها الاميرة .

وهي التي كان من رأيها جعل قرطبة محطاً لرحال أهل
العلم ورجال الفضل والادب وهي التي كانت تقوم بترتيب الحفلات
المتعددة داخل القصر وتدير الخطط اللازمة للدفاع عن البلاد
خارجاً . وهي هي التي كانت تعقد الجلسة تلوا الجلسة بالاشتراك مع
المصحفي وابن أبي عامر للمداكرة والمداولة والمشاوردة في أحوال
البلاد وتدير الخطط اللازمة لمكافحة شر الأعداء والتتكيل بهم .
كانت لسان بيت الزهراء الناطق وحياة قرطبة الزاهرة
ودوح الاندلس النابض فانتشرت أنوار ذكاءها في كل صوب وناحية
وقد اشتهرت بين الجميع بالسكياسة واصابة الرأي حتى لم يبق
انسان لم يعجب بحسن ادارتها وقيامها بالشئون العامة (١)

كانت الاميرة صبيحة معجبة بمقدرة ابن أبي عامر ، لاندرى
كيف تكافى كاتباً نشطاً مثله !! أما هو فكان يلازمها بحفنة روحه
وطلاقة لسانه ويظهر لها الرغبة في استخدامهم ليس في الامور

(١) كتاب مشاهير النساء

فوقع اختيارها عليه لانها لم تجد بين المتقدمين أليق منه
للوظيفه المطلوبة . وانتهى الامر بوافقة الخليفة على تعيين ابن ابي
عامر رئيساً لكتاب الاميرة .

الآن تعرف منى أيها القاري بأن كاتب الاميرة هذا سعيد
الحظ موفق الطالع فها قد نال أول أمنية من أمنائه العذبة التي
طالما قضى الساعات الطوال مفكراً بها تحت ظلال حدائق قرطبة
بسهولة ما كان يحلم بها . . .

قد خدمه حظه ورقى أولى الدرجات المؤدية الى ذلك
القصر البديع ، فصر الآمال والتصورات فكان يري بين
الخيال انه سيدخل ذات يوم ذلك القصر ويمتص أنظاره بزينة
وبديع رياشه وجميل أثائه بل ان الامل كان يذهب به الى ابد
من ذلك فقد كان يرى انه سيفتخر بأهته وسلطانه ويكون
صاحب الكلمة بين سكانه .

كان يحلم بتل هذه الآمال وكلما لج به الفكر ازداد سروره
واشتدت بهجته .

وبينا كان الخليفة الحكم المنتصر بالله منعكفاً في مكتبته
النادرة ، كانت الاميرة صبيحة تدبر دفعة الامور بمعونة حاجب
الدولة عثمان بن جعفر المصحفي (١) وكان كاتبها الخاص محمد

١ لاني بول

الكتابية فحسب بل في كل شأن من شئونها ،
وكان اخلاصه في العمل مما يزيد اعباءه الى حد بعيد (٢) الذي
اكتسب ابو عامر ثقة الجميع واستأنس به الكل حتى
أصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه ، وفي الحقيقة كانت اهميته
تزداد من يوم لاخر حتى بدأ الناس يتوددون اليه . وقد كان
يتزلف الى أصغرهم شأناً من قبل ، وما كاد حاجب الخليفة جعفر
المصطفى يستشير به ويعتمد عليه في بعض أمور حتى ازدادت
منازحته رفعة بين أهل القصر الذين بدأوا يعقدون عليه الآمال
ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ان الخليفة نفسه لم يتألك من
الاعجاب به وقد رأى اخلاصه في العمل وأدرك موافقه ومزاياه
في هذه الفترة ، وقد ابتسم له الدهر ، عهدت اليه الاميرة
ادارة ضياعها وممتلكاتها ، فأصبح مديراً بعد أن كان كاتباً ، وبعد
مضى زمن قصير احتاج الخليفة الى شخص أمين يعهد اليه ادارة
الضياع الخاصة بولي العهد ولما كان متردداً في انتخاب الشخص
اللائق لهذه الوظيفة عرضت عليه الاميرة تعيين ابن أبي عامر
لهذا الغرض . تردد الخليفة بادى ذى بدء لأنه صاحب الرأي
الاول في قبول أو رفض المرشح لهذه الوظيفة ، حيث مازال له
نصيب في حكم البلاد . ومع ذلك فقد كان يعلم قبل أى انسان

(٢) ابن الزهاري

ان الرجل الذى يعهد اليه املاك ابتهيج ان تتوفر فيه مزايا
جمة وان كل هذه المزايا مجموعة في شخص ابن أبي عامر والافهل
هناك امرؤ أقدر منه على العمل وأشد منه اخلاصاً ؟ (١)
فكان لزاماً على الخليفة أن يقبله بلا تردد ولذا انتهى الامر
بنزوله عند رأى الاميرة واصدار الامر بتعيينه مديراً عاماً على تلك
الاملاك والضياع ، ففي عام ٣٥٦ م الهجرة اجتمعت لابن أبى
عامر ثلاث وظائف عمومية الاميرة وحمايتها جعلته يظاً الدرجة الثانية
من عرش آماله وأمانيه وهو في السادسة والعشرين من عمره

كان ابن أبى عامر سعيد الحظ فخوراً بوظائفه الثلاثة يصرف
في سبيل القيام بأعبائها كل ماله من وقت وجهد ، كان أفق
المستقبل يبدو ناظره منيراً مشرقاً وأحلامه زاهية زاهرة ،
ناظران و يتلاقى من المستقبل . أما كان يشعر بأن الحظ سيؤاليه
نعم أكثر ما دام ينسج على هذا المنوال ؟ والافن ينكر رقيه
سريع في زمن قصير . ألم يتقald سلطة واسعة لا تخطر على البال وهو
في مثل هذا السن ، في عامه السادس والعشرين ؟ وهل لم يكتسب
ثقة المصحفي وصداقته ؟ ألم يكن أهل القصر بما فيهم الاميرات
يجوبون بظرفه ورقة شمائله ؟ وفوق هذا ألم تكن الاميرة نفسها
تظهر له ضعفاً وميلاً شديدتين وتبدل ما في وسمها لرعايته وحمايته

(١) دوزى

أجل كانت تفعل كل ذلك لدرجة اضطرت به الى طرق أبواب الحيل وليس ثياب الدامنة لانه كان مضطراً في حالته تلك الى ملاطفة أهل القصر ومراضاتهم جميعاً فكان يسم لهذا ويلاطف ذاك ويهطف على تلك مراعاة للجميع حرصاً على ابقاء الطواهر على حالتها . وهذه حالة اكسبته رضى الجميع وجعلته محبوباً منهم يتقبلون هداياه بسرور وابتهاج وكان الخليفة يقول لاحد مقريه : « ان كائب صبيحة هذا رجل غريب الاطوار ، قد استمال اليه جميع من في القصر واننى لأرى بعينى رأسى كيف يجلون هداياه الثافهة ويفضلونها على أئمن هدية تقدم مني اليهم . فلست أدري هل أعده موت المخلصين الذين أم اعتبره ساحراً محتالاً » ومع ذلك فان أبا عامر استمر يتقدم حتى أصبح بمساعي الاميرة ناظراً لخزينة الدولة ثم عين بمدنها المدير المطلق لادارة (صك النقود) وبذلك أصبح في مصاف كبار الموظفين في الاندلس . وكانت الاميرة تباركه في سرها وتهم برفقه السريع ، ولم كانت شاكرة لحاسن الصدف التي وضعت في طريقها مثل هذا الكاتب الحائز لمزايا عديدة ، فلشد ما انتفعت بمواهبه وكثر ما اهتم هو بكل شأن من شؤونها . فهو اليها الشخص الوحيد الذى لا يمكن الاستغناء عنه أو الركون الى غيره . انه ليعلم آداب الماشرة أكثر من المترين بن جدران القصور ، ظريف لبق . تطربه النعمة الحلوة ، ذو الملم بالموسيقى

قادر على مزاولة أى عمل يكلف به . أضف الى ذلك علمه بحالة الاميرة الروحية وادراكه للأشياء التى تبهجها وتقع من نفسها موقع الرضى والقبول . فله دره من شخص رقيق الحس عالى الفكر ! !

كل هذه صفات كانت لاميرة تفكر فيها وتراجع نفسها عما اذا كانت متفالية في تقديرها . كلا كلا ان أبا عامر ليستحق منها هذا التقدير هنا يتساءل القارئ هل كان ذلك مجرد تقدير فحسب أم انها تميل اليه دون أن تعرف حتى انفسها بهذا الميل ؟ جواباً على ذلك نقول انها كانت تحبه (١) تحبه لدوجة أنها أصبحت نجد لذة سائفة في ادعاء الاوامر اليه وتكليفه بكتابة التبريرات المهمة وغير المهمة الي غير ذلك من الاسباب والمآثر المؤدية الي مقابله والاحتكاك به ولكن هل كان هو يشعر نحوها مثل هذا الميل ؟ ألم تكن في ريمان شباها وعز جمالها ذات صوت رخم وملاحة جاذبة ؟ أليست هى الاميرة صبيحة ملكة قرطبة المحبوبة ؟ فهل يمكن ألا تحب . نعم ان أبا عامر كان يعطيها لدوجة العبادة لجمالها أو لحاسن نفسها بل لوجاهتها ونفوذها . وكانت هى لا تميز فيه هذه الحالة لأنها أحبته من أعماق نفسها حباً نارياً تغلب على كل ما لديها من اودة وعقلية . كانت

(١) لان بول

الجاهل لمشاهدة هذه التحفة اليتيمة (١) وقد سرت الأميرة من هذه الهدية الثمينة التي كلفت أبا عامر مبالغ طائلة وكان لها أثر بليغ في نفسها. من ذلك الحين بدأ يقدم لها الهدية تلو الهدية مراعيًا في ذلك أن تكون هديته الثانية أتمن وأرفع قدرًا من الأولى. كل هذه أمور زادت سرور الأميرة وضاعفت من شكرها وامتنانها له إلا أن تكرار هذه الهدايا على وجهه من الاسراف لا يطابق حالة أبي عامر، فك السنة الجهور من عقال السككون وأخذوا يتساءلون ويتهامسون في الجامع عن مصدر تلك الاموال الباهظة التي أنفقت في سبيل مجاملة الأميرة، فكانوا يقولون في أنفسهم: ان هي الا من مال الامة ومتوفرات بيت المال والافرن أين له كل هذه الاموال؟ وقد اتسمت دائرة تلك الاشاعات وتماوجت حتى اتصلت بمسامع الخليفة نفسه فأرسل يطلب أبا عامر الى بيت الزهراء.

أرسل الخليفة يطلب ابي عامر الى بيت الزهراء لتقديم الحساب عن أموال الحكومة المودعة تحت تصرفه.

هذه صدمة لم تكن في الحسبان ارتفعت لها فرائص أبي عامر لان الخزانة كان بها عجز ظاهر لا يموضه الا مال وفير. ففكر في الامر وقدح زناد الفكر فلم يجد امامه سوى الانتحاء الى صديقه

(١) دوزي

تجبه محبة غير محدودة، كحب شجرة الدر لعز الدين بن ابيك. كلتاها، صديحة وشجرة الدر وقتما بين برائن محبة فاسية، قوضت اركان شخصيتهما المتنازعة وتركتهما تمانيان مرائر السلاوى وآلام الهجران. كلتاها بذلتا ما في وسعيهما لارضاء حبيبيهما الى حد ان أسقط ما لهما من كرامة وهوى بهما من سماء الرفعة والعز الى حضيض الذل ليمتزجا بالشخصيتين العزيزين لديهما فكل رغبة لهما أو كل أمل كان مقيداً بهواهما كلتاها كانتا شمساً تتألق في سماء دولتها - تحيط بها نجوم وسيارات ثم انفكست الآية بعد أن تجرعتا كأس الحب فتبدل الحال بنير الحال وانحطتا الى دركة السيارات بعد أن كانتا في دائرة الشمس والاقطار. وارتفع تبعا لذلك شأن حبيبيهما، محمد بن أبي عامر، وعز الدين بن ابيك حتى أصبح كل منهما الشمس الساطعة في دولته. أجل استفاد كل منهما من حالة حبيبه الروحية وجعلها ساعداً لا غرضه ومراميه وتم لهما ما أرادا بخاتمة مؤلة تكتنفها الدموع وتحيط بها الآلام تولى أبو عامر منصبه الجديد وأظهر امتنانه وشكره لاميرته وولية نعمته بهدية ذات قيمة سادت بذكرها التوكلان كانت هديته نموذجاً صغيراً لاحدى قصور الاندلس الجميلة مصنوعة من الفضة ومنقوشة بنغاية الدقة والاحكام وقد كان يوم نقلها من بيته الى القصر الملكي يوماً مشهوداً اجتمعت فيه آلاف

العزیز ابن خضیر وقد التجأ الیه وطلب منه بدالمعونة فكان عند حسن ظنه به لأن ابن خضیر أعانه على امره وأقرضه المال الناقص وبدا أتم أبو عامر شؤونه وأكمل حسابه وعیم نحویت الزهراء آمننا مطمئنا وهناك أمام مولاه قدم حسابا دقيقا برهن به على امانته وأظهر اخلاصه وقطع السنة المخزینين والمعدة كانت دفاؤه مرتبة منسقة وخزائن الدولة ملأى بالاموال ودار الضرب تنويع بسبائك الذهب والفضة فجل الخليفة من نفسه ولم يسمه الا تقديم عبارات الشكر والاعجاب بناظر ماليته القدير ودفعاً للشبهة وسوء الظن عهد الیه بوظيفة جديدة هی وظيفة التفتيش العام

وفى اليوم الثانى لهذه الحادثة أعاد أبو عامر ما اقترضه الى صديقه الجیم وكان عمله هذا معجزة ألجت السنة اعدائه وأوقعهم في مهوى الدهشة والحيرة. ان حسن الطالع مازال يناصره ويشد أزره وينجده أكثر من ذى قبل فها هو قد أظهر اخلاصه لخليفته وخرج من تهمة نقي اليد على الرأس وازدادت مكانته في نفس الاميرة وعلت كلمته في طول البلاد وعرضها حتى أصبح أوسع رجال الدولة نفوذاً وأعلام كلمة ان انتصاره على اعدائه بتلك الكيفية زاد من محابة الأميرة له فتمكنت من تقريبه الى الخليفة أكثر من ذى

قبل وأخذت تنشر محاسنه بين الناس جهاراً ولا ترى بأساً من المضي معه في تيار الهوى فصار ما بينهما حديث القوم في سمرم ومجالس أنسهم ولهوهم (١) حتى أصبح يخشى من وصول ذلك الى مسامع الخليفة ولذلك ارتأى المصحفي بعد موافقة الاميرة ان يذهب أبو عامر الى اشبيلية (٢) كحكاكم مطابق فتم ذلك في شهر ذى الحجة سنة ثلاثمائة وثمان وخمسين هجرية وبعد ان أقام بها مدة عبر الى مراکش عن طريق جبل طارق

فرح اعداؤه بهذا الابداد واختلقوا عليه الكاذب شتى كادت ان تمحو ماله من شهرة وبعد صيدت، الا ان صديحة كانت ترمقه بعين رعايتها وتظله بجناح حمايتها وهو بعيد عنها فقد كانت تذيع سراً ان الخليفة ارسله لمراكش لمراقبة دفاتر بيت المال وكشف احوال القائد الأكبر غالب. كان المصحفي يحقد على غالب ولذا اغتبط بمهمة ابى عامر لعلمه بأن هذا الامر يضايقه ويخرج مركزه الا ان غالباً كان قائداً جسوراً مقتدراً وماكلا يجتمع بأبى عامر حتى تفاهوا وتآفأ وقد ذكره أبو عامر بخبر واثني عليه في حضرة الخليفة وبين ماله

(١) الاطهارى

(٢) المقرئ

الفصل الخامس

في العام الخامس والستين بعد الثلاثمائة مرض الخليفة الحكم واشتدت عليه وطأة المرض حتى لزم فراشه ، ولما أيقن من نفسه انه في مرض الموت وأنه أصبح من المنية على قاب قوسين أو أدنى اضطرب باله وازداد قلقه لامر واحد : هو أمر ابنه هشام البالغ من العمر اذذاك احدي عشر عاما وكانت المادة المتبعة الي عهده في امر الخلافة هو انتقالها بالارث من الارشد الى الارشد غير ان الحكم كان لا يطيق ان يري اخاه المغيرة متقلدا زمامها يوما ما . أضف الى ذلك ان كاهنا تنبأ له بأن الخلافة قد ينزل ركنها في بني أمية وتقوض دعائها ان لم يتقلدها اولاد من صلبه وهذه النبوءة جعلته يعتقد بأنه من اكبر الواجبات عليه نحو أمته اقتناعا بقبول خلافة ابنه هشام من بعده

وأخذت زوجته صبيحة بناصره في هذا الامر وعضدته فيما ذهب اليه من وجوب حصر الملك في ذريته من بعده فان فكرة تنجيه هشام عن منصب الخلافة هيجت عواطفها وأثارت مافي نفسها من كواسن الذكاء والفطنة فقد حث زناد الفكر أملا في الوصول الي حل مرضى وكانت كلما أمعنت في البحث هالها الامر وأضناها لميب الفكر . كانت تقول في نفسها : كيف تكون النتيجة اذا

من المآثر في قمع الثورات وتسكين الاضطرابات في ربوع مراكش مما سبب رجوعه مكرما محترما الى قرطبة رغم اعتراض الصحفي وإصراره في ذلك

ظهرت لأبي عامر في هذه الرحلة خدمات جليلة دلت على اخلاصه لأمته وحبته من نفوس مواطنيه الذين عرفوا له فضل هذه الخدمات والمساعى وقد ظل يرسل الاميرة طول غيابه في مراكش ويخلد ذكراه في نفسها بالهدايا النفيسة (١) والذكريات المعنوية الجميلة مما جعلها تظن في أنها تشغل مكانا ساميا من غيخته ، فلم تطف صبرا على بعباده وكان أهل القصر يواصلون سعيهم ويكررون أمنيتهم في عودة محبوبهم الظريف . وحدث اذذاك أن ولي عهد السلطنة توفي وخلفه هشام في ولاية العهد واحتاج الامر الى من يدير حركة ضياعه وتدير شؤون أمواله فأشارت الأميرة باستدعاء أبي عامر لانقضاء ادارتها الى عهده وفي سنة ثلاثمائة وتسع وخمسين هجرية عاد أبو عامر الى قرطبة بعد ان لهجت الالسنه بأقول شمس وسقوط شأنه ودخلها ظافرا شامخ الرأس ، حيث عهد اليه بادارة ضياع ولي العهد وتولى ادارة الشرطة والدرك .

لم يرض الشعب بخلافة هشام وكيف تكون العاقبة ذا ثارات
ثائرة الاندلسيين ألا ينتهز أمراء الفرنجة هذه الفرصة لسوق
جيوشهم على قرطبة وكيف تكون حالتها هي إذا لم يصبح انبها
الخليفة ؟ ألا تكون في هذه الحالة كمية مهمة مقضيا عليها
بالاقتراض والتلاشي ؟

كانت قد بُدست من شفاء زوجها وأيقنت بأن كل يوم يمضي
يديه من حافة القبر ، ولذا شمرت بوجود الاسراع في التدبير
واممال الرأي لاجاد طريقة تحل هذه العقدة وما زالت تفكر وتقلب
الرأى على وجوهه حتى توصات أخيراً الى رأى صائب أوجت
به الى الخليفة فسارع الى تنفيذه في الحال . وفي غرة جمادى الاولى
من سنة ثلاثمائة وخمس وستين هجرية انعقد مجلس كبير (١) ضم
كل مافى الاندلس من الاشراف والاعيان وأصحاب الكلمة العليا
وذوى الحميميات حيث قرأ الخليفة عليهم اقراراً بقبولهم تولي
هشام للخلافة من بعده للتوقيع عليه ممن حضر ذلك المجلس .
لم يجبرهم الخليفة على توقيع الاقرار ولم يستعمل نفوذه أو
تأثيره للضغط على ريتهم في قبول التوقيع ، غير أنهم لم يجدوا
من اللياقة عصيان أمر رئيسهم وخليفهم المحبوب فوقعوه عن
وضانفس وطيب خاطر . وفي تلك الجلسة أمر رئيس الكتاب

(١) ابن الزهاري

وكان من ممالك الاميرة بدسخ هذا الاقرار وأخذ جملة صور
منه لتوزعها في جهات مختلفة من الاندلس للتوقيع عليها من
وجود البلاد واصحاب الشأن فيها تحت اشراف ابن أبي عامر
مأمور الضبط ورئيس شرطة البلاد . وقد ارسلت نسخ متعددة
الى جهات اخري غير بلاد الاندلس ، مثل مراکش وافريقيا
فكنت ترى عامة الشعب يتسابقون الى توقيعها مع الكبراء
والاعيان جفا في اظهار اخلاصهم وولائهم لخليفتهم
سر الخليفة من نجاح المشروع وقدر عمل زوجته هذا حق
قدره أما هي وقد رأت انحلال قواه ودنوه من الموت . فقصد
بذلت مافى وسماها ليكون ابن أبي عامر المفتش العام للقصر
السلطاني ووصلت الى ما تريد كما كان منتظراً (١)

الآن وقد تم توقيع الاقرار وبدى بذكر هشام في خطب
الجمعة بعد اسم الخليفة اطان بال كل من الحكم وصبيحة الا أن
الظروف كانت لاتزال خطيرة ، فان للمغيرة أعواناً ومويزين على
أهبة الاستعداد عند ظهور أي حركة تنبئ بسوء التدبير أضف
الى ذلك ان أمراء الفرنجة القيمين في شمال الاندلس كانوا على ساق
وقدم لتمبئة الجيوش واعداد الرجال ، يتربصون سنوح الفرص
وقد سمعوا بمرض الخليفة .

(١) المقرئ وابن الاثير

لاشخاص اكفاء لاتعمض أعينهم لحظة واحدة عن حفظها ووقايتها من كوارث الدهر ونوازل الزمان

في اللحظة التي توفي فيها الخليفة لم يعلم بوفاة سوى صبيحة والمصحفي وابن أبي عامر ومملوكان يسميان جوهر وفائق اما اهل القصر عدى هؤلاء فكانوا يمتقدون بأنه ما زال - في فراش المرض لان صبيحة بذلت ما في وسعها لكتمان الخبر ولعبت دورها بكل اتقان الى ان وقفها الله لتخليص الدولة من اختلال كبير يهدد البلاد . اهتمت اولاً بالمملوكين وندبرت مديهما امر كتمان الخبر عن الشعب وعن اهل القصر اما المصحفي وابن أبي عامر فكانت واثقة من صداقتهم مطمئنة لا خلاصهما . هنأ في هذه اللحظة ظهرت صبيحة بكل ما فيها من نبوغ ودهاء ، حيث كان مستقبل الانداس في يدها وأقل اهل او خلاف يكفي لانتاج أخطر المواقف ويوقع بيت الزهراء في يد الغيرة وقرطبة لحكم الحزب الخالف . ثم تقم الانداس جميعها بعد ذلك فريسة في يد الاعداء غير أن حسن الحظ خدماها ومكنها من اتمام دورها باقتان خلد لها شهرة دائمة في صفحات التاريخ اجل انها جاهدت وكافحت ولكنها انتصرت وتوفقت لتخليص التاج والمرش لابنها هشام وبدأت كنت من الاحتفاظ بكانتها ووقاية شوكتها ونفوذها بعد أن كانت من السقوط قاب قوسين او أدنى

أخذت وطأة هذه الاحوال تزداد شدة وازداد تبعاً لها قلق الاميرة فانها كانت تنظر الى المستقبل ، الى يوم وفاة الحكم فترى أفق السياسة ملبدًا بالغيوم ، فبدأت بالتدبير والتجهيز استعداداً للطوارئ ، بكل ما فيها من قوة وعزم غير أنها كانت رغم كل وقاية واحتياط لاتدري كيف يكون خروجه من تلك المشاكل . فهناك الغيرة ، أخو الخليفة هل يجب منازلاته أو لأم الاجدر مجابهة أمراء الفرنجة والاهتمام بما قد يحدث من المواقف على الاقرار بظاهراً والتمرد بين على الحالة باطناً كل هذه أمور خطيرة تستحق النظر والاهتمام ، لاتدري أية طريقة تتبع للتخلص منها فحست هذه المشاكل ودققت النظر نحو نه المصحفي ولبتعداد الرأي من أبي عامر اترى يب الخطط اللازمة ، وكانت وطأة المرض قد اشتدت على الخليفة ولم يبق لديها أمل في شفائه وما كادت تطلع شمس اليوم الثالث من شهر صفر سنة ثلثمائة وست وستين هجرية حتى فاضت روحه الى بارئها مات الحكم وقد حكم ستة عشر عاماً كلها امان وسلام ، بالغما من العمر اربعاً وستين عاماً ، محبوباً من الشعب مبيكياً عليه من اقاربه وأهله لفضله ومكانته بينهم ، تاركاً دولته وهشامه وديعة في ايادى زوجته الحبيبة صبيحة وحاجبه الامين المصحفي وكاتبه النشط محمد بن ابي عامر . مات مطمئن البال ، مرتاح الضمير لو ثقته من حسن سياستهم وجميل تدبيرهم وللمه به أنه ترك وديعته

المصحفي لهذا الامر وأخذ يقلب الامر على وجوهه ليتبين وجهها للخلاص فنزل على أن يستدعي أبا عامر إلى تلك البقعة سرًا ليتساور معه في هذه الكارثة القابلة ثم التحقت بهما صبيحة عند ما علمت بوجودهما هناك وشاركتهما في التدبير والتفكير لم تكن هناك الا طريقة واحدة لحل هذه المعضلة ، هو ازالة الغيرة من الطريق حتمًا انها الطريقة النلى ولكن من يقدر على تنفيذها . اتجهت الانظار الى أبي عامر لانه أقدر الثلاثة على اتيان هذا العمل . اذا قبل أبو عامر تنفيذ ذلك فانه ينقذ صبيحة من أشد الازمات وأخرج المسالك في حياتها بل هناك ما هو أهم من ذلك انه ينتشل ولي المهد من وهدة السقوط وبالأحرى ينتشل الاندلس من أحضان الفوضى والانحلال . انها لفروسة سانحة تجوب بها الاميرة صداقة محسوبها وريب نعمتها

أمام هذه الظروف وإصرار المصحفي لم يسع أبو عامر الا الاذعان فشمروا عن ساعد الجد وذهبوا الى قصر المغيرة يصحبه العدد اللازم من الجنود الاشداء للقضاء على حياة المغيرة كان المغيرة شابا في السابعة والعشرين من عمره ، الا أنه جبان وعديد ، فما كاد يرى وجه أبي عامر ويده على قبضة السيف حتى قال له ونبرات صوته تدل على الخوف والاستسلام « اننى طوع ارادتك فافعلوا بى ما شئتم » فأخبره أبو عامر وفاة

الفصل السادس

كان الملوكان ، فائق وجوهه ، من الجنس السلافي ، يحكان على الف مملوك آخر في القصر ومتصفان بالظلم والندم والعمل لما فيه نكابة أهل الاندلس وكانا يحقدان على المصحفي وهو أيضا يحقد عليهما ، ويعلمان بأن نفوذهما سيذهب أدراج الرياح منذ اليوم الذى يستولى فيه هشام على تاج الخلافة . وعندما علموا بموت الحكيم خطر ببالهما أمرًا مرة عليه سرًا وعقدوا النية على تنفيذه فى الحال فاستدعيا الحاجب بدون علم أبي عامر وأفضيا اليه واقعة الامر وأعلماه بأنهما غير راغبين فى خلافة هشام وطلبا اليه مساعدتهما فى ذلك

أسقط فى يد الحاجب وعلم بأن أقل معارضة تورده حتىه مكانه فلم يبدأ من التظاهر بالانحياز اليهما وأنه وارض عرف خطتهما ثم أقفهما أنه من صالح المل تركه فى مكانه كحارس بينما يذهبان لاخراج الفكرة من حيز القول الى دائرة العمل كان للمصحفي يعلم بأن الاندلسيين الذين لم يدوقوا طعما للحكم الاوصياء بعد ، يصعب عليهم قبول مثل هذه السنة الآن . ان صغر سن هشام حجة قوية فى يد الخصوم لرفض خلافته ، فلا يبعد اذن أن تروج فكرة تنصيب المغيرة للمرش . اضطرب

الخليفة مكان ابيه في اليوم الثاني كما كان مقرراً وبإيمه الناس في حفلة عظيمة - حتى فيها بلقب (المؤيد بالله) وهو اذ ذاك لم يتم الحادية عشرة من عمره، وقدم كذلك للملوك، فائق وجوهر، طاعتهما للخليفة ومن ثم اختفى هشام عن العيان في احدى زوايا القصر مع مربيه الذي عهد اليه في أمر نريته

ثم الامر كما ارادت صبيحة وكما شاء ابن أبي عامر والمصحفي وظهرت الاميرة على مسرح الحكم علنا (١) اذ كانت الآن تحكم باسم الخليفة ابنها، لانها أصبحت الوصية عليه فكان اليوم يومها والزمان زمانها، كانت الحاكمة المدبرة لكل أمر منذ عشر سنوات الا أنها كانت تحكم من وراء ستار وكان لها نفوذ واسع ولكن، نفوذ عار عن الصبغة الشرعية أما الآن فقد استحكمت نفوذها وظهرت بظهور الوصية، صاحبة الامر والنهي

أخذت في دورها العمل تنظر في قرارات المجلس الاعلى وتبحث عن الوسائل المؤدية لاستتباب الامن في ربوع الاندلس وكان من أول أعمالها تخفيض الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهل الاهالي مما جعلها محبوبة لدى الشعب مرعية الجانب لدى الخواص لان رجال الدولة لم يقع اختيارهم عليها كوصية عمناً بل لانها كانت مشهورة بينهم بذكائها، معروفه لديهم بحسن دراياتها في سياسة البلاد (٢)

(١) قاموس الاعلام (٢) تاريخ الاندلس لفضيا باشا

أخيه الحكم وبتنصيب هشام ابن أخيه للخلافة فأجاب : « انني أقسمت سابقاً على مبايعته أطال الله بقاءه »

حركت هذه الحالة عاطفة الشفقة في نفس أبي عامر وجعلته يمسك عن قتله، حتى أنه خرج الى ناحية من القصر وكتب الى المصحفي رسالة يخبره فيها بعدم موافقته على الامر المتفق وأرسل الرسالة مع رسول خاص فلما قرأ المصحفي رسالته اضطرب لان المجال كان لا يتسع لظهور مثل هذا التآلم والاشفاق فكتب اليه في الحال يقول : « وانك بمنزل هذا التردد توقعنا في ورطة أشد مما يتحملها الآن فهل أنت عازم على خيانتنا أيضاً ؟ »

وصل الكتاب الى أبي عامر مع الرسول نفسه فأنهم نظروه في الامر وقد جاشت عواطفه ولم يتمكن من اسكات ثائرة الشفقة القائمة بين جوانحه الا أنه مع ذلك لم يبدأ من اصدار الامر الى جنوده بالاجهاز عليه فانقضوا عليه وكتمو أنفاسه ثم وادوا جثته في احدى زوايا القصر

علم المصحفي بتنفيذ المشروع فسر في نفسه وأبدى ارتياحه اما الاميرة فكان سرورها أشد وكان يلوج عليها مظاهر الامتنان والشكر لهذا العمل الذي كان سبباً في زيادة تعلقها به اذيع بعد ذلك خبر موت الخليفة وتقلد هشام منصب

كتب التاريخ المصورة لتلك الايام مشحونة بذكر سجايها وسرد فضائلها ومزايها أما شعراء عهدها فقد نظدوا لها عقود مدح سارت بذكرها الركيان وشبهوها بالنجوم وأعلوا قدورها الى السماكين حتى طبقت شهرتها كل ربوع الاندلس

كل شيء في تاريخ حياتها جميل ظريف، سوى أمر واحد يوسف له جد الاسف، هو عدم كتابة خاطرها في مذكرات تعب عما كان يخالجها من المشاعر والاحساسات في الظروف المختلفة التي تقلبت أثناءها. لو كتبت مثل هذه الخواطر فمن يدري أى الاساليب الشعرية الخالدة وأى المعاني السامية الخلاه كنا نجد لذة في تصفح حياة تلك الاميرة وهي تروض النفس في حدائق قصر الزهراء وتفكر في ماضيها. هل كانت تتأثر الان بذكر لياليها النرامية التي قضتها مع الحسبك في نفس ذلك المكان !:

هل تذكر الآن أيام شبابه وتلك السويحات السعيدة التي كانت تشمر فيها بحبة الحكم لها، وهل لتلك الاوقات أثر في نفسها أو هي نست حتى الايام التي كانت فيها تتغنى بين تلك الخائل والافنان ؟

لو كانت لها مذكرات امكننا علمنا في أي مركز احساسها الان أو كنا علمنا فيها تفكر وهي تمر في طرقات تلك الحدائق.

هل كانت أفكارها معطوفة الى المستقبل أو انها تحترم الماضي أيضا فتلتفت اليه من حين لآخر ؟ من يمكنه ادراك ما في خفايا هذه المرأة اللعلة القادرة ومن يعلم وجهة افكارها الآن ؟ ربما كانت تحسب ضحاياها وربما كانت تتأمل في حسن طالعها وربما كانت الآن تقاب صفحات حياتها الصفحة بعد الاخرى بلا قيد ولا روية

يحفظ لنا التاريخ أنها بعد الفراغ من أعمالها السياسية كانت تجلس على مقربة من بركة مزخرفة وسط الحديقة لاستنشاق نسيم المساء المعطر بروائح الزهور والرياحين، في ذلك الوقت الذي يطير فيه المرء ساجدا في عالم الخيالات، في عالم اثري بعيد عن ماديات هذا العالم الارضى

كم يشواق الانسان الى معرفة تصوراتها وما يدور بخلدائها في تلك اللحظات اللذيذة القصيرة !! هل كانت أفكارها موجهة الى ابنها وأمر تربيته أو انها كانت تفكر في أمر الحياة لتعرف حقيقتها فتقول في نفسها: ان هي الا رؤيا نرى فيها الحقيقة في ثوب الخيال والخيال في لباس الحقيقة أو أن تصوراتها تنحدر بها في تلك اللحظة الي مظاهر الواجهة وآثار التميم والترف التي تقلبت في أحضانها منذ الساعة التي كانت نمت فيها بين مخائل الحديقة؟ أو أنها تحصى الحوادث والصدومات التي تحماتها منذ ستة عشر عاما؟

الفصل السابع

قدم المملوكان فروض الطاعة ورضخا لحكم الزمان مؤقفاً،
 الا انهما لم ينسيا قتل الغيرة ومدبري تلك المؤامرة وذلك لم ينفكا
 عن تحريك الفتنة واذكاء نارها الخادمة كلما استطاعا الى ذلك
 حيلة. اندفعا في هذا السبيل حباً في الانتقام من المصحفي
 وابن أبي عامر وأوشكت ثمار اعمالهما تنضج، فان الشعب
 بدأ يشكو من احتجاب الخليفة عنه وأخذ الناس في حجامهم
 يتحدثون عن صغر سنه وقد كان لهم بعض العذر في التذمر
 لانهم في عهد عبد الرحمن وابنه الحكم اعتادوا أن يروا خليفتهم
 من وقت لآخر أما هشام فقد بقي متروياً في حجرات القصر
 منذ يوم الميامة

اغتبط لهذه النتيجة مدبروها وقلقت لها صبيحة، التي
 كانت تراقب مجرى الحوادث بعين يقظة، فاستدعت المصحفي
 وابن أبي عامر وطلبت منهما ابداء الرأي في هذه الصدمة، فقرر
 رأيهما على اخراج الخليفة لشعب وفعلاً ظهر هشام للانديسيين في
 حفلة عظيمة جمعت كل دواعي الهيبة والمظمة وكان ممتطياً جواده
 وعلو عيونه حاجبه المصحفي وعلو يساره ابن أبي عامر وقد زاد أبهة
 المهرجان اشتراك فرق عديدة من الجنود في الموكب وفي نفس هذا

كلا كلا انها في تلك الجلسات بجانب البركة، كانت تنظر الى النجوم
 الالامعة في صفحة السماء لتقارن بينها وبين القصائد التي نظمتم
 في مدحها والنشيبات التي قيلت من أجهلاء ورجا كانت لا تفكر لا
 في شيء واحد ولا يشغل ذهنها الا أمر واحد هو غرامها وهيامها
 بأبي عامر....

آه من يدري ذلك كل هذه أسئلة لا يمكن الاجابة عنها
 وستبقى سرّاً غامضاً الى الابد
 لم أجد في أي كتاب حياً يشابه حب صبيحة ولا نفسية كنفسيتهما
 وقد علمت بالبحث والتنقيب أن أبا عامر كان روحها
 وحياتها ولكنني بكل أسف عجزت عن وصف تصوراتها
 وافكارها في تلك الساعات القصيرة التي كانت تنزه فيها في حدائق
 بيت الزهراء

اليوم الغيت إحدى الضرائب (ضريبة السمن) عن كاهل الاندلسيين فهازل القرطبيون لروية خليفتهم وكبروا وقد ازدادوا محبة له والتفافا حول عرشه

لم يفت ذلك في عضد الملوكين بل أغراها على التهادى في إشعال نار الفتى وقد أدت بها الجراة إلى نصب حياثل مكيدة داخل القصر ، كانت سبباً في فضيحتها وفيها الى الجزيرة . أما أعوانها واتباعها فقد نالوا الجزاء العاصم من أبى عامر . وبينما كانت الاحوال في داخل البلاد على هذا الوجه كان أمراء الفرنجة في الخارج قد اشتدت قوتهم وتمددت منهم حوادث النهب في البلاد الآمنة فقلقت صديحة لهذه الحالة لعلها أن قيام هؤلاء الاقيال دفع واحدة بعد سكوتهم مدة طويالة منذ عهد الحكم يندربقرب وقوع حروب شديدة بينها وبينهم ، فأمنت الفكر في ذلك واستمدت كعادتها برأى الحاجب وصنيعتها أي حاصر فاشادوا عليها بعرض الامر على وجوه الامة وأعيانها فجمعتهم في مجلس عام وطرحت المسألة على بساط البحث والتدقيق وكان رأي سوادهم فصل المشكلة بحمد السيف وقد خطبهم ابن عامر خطبة بليغة شرح فيها الاسباب الموجبه لشن الفارة على الاعداء وتأديبهم قبل استنفحال الامر ، فاستهوت اعطيه ألباهم ولم يبق في المجلس نقر على غير رأيه غير أنهم لفتوا

نظروا الى نفقات الحلة وما تستدعيه من المصاريف ، فطلب منهم بيانا بجماعتها فلم يحرك أحدهم جوابا عند ذلك أجابهم بأنها ربما بلغت مائة الف دينار تقريبا ، فرد عليه أحد الحاضرين مستظما ذلك فأجابه على الفور : (خذ إذا شئت مائتي الف وتول قيادة الحلة وخفف عن عاتقي هذه المسؤولية) فأخمت هذه الكلمات قول المعترض . وبعد أن وصل المجلس الى هذا الحد أخذ يفكر في تعيين من يعمد اليه بقيادة الجيش وكانت هذه مشكلة جديدة بالبحث حيث لم يقبل أحد من الحاضرين أن يتولى مثل هذه الأمور الا أن أباعامر فض الاشكال بأن قبل القيام بذلك على شرط أن يدفع اليه مقدار النفقات وأن تكون له الحرية (١) في انتخاب رؤساء الجيش . فردى الحاضرون وباركته صديحة ولم تنالك من الجاهرة بأنها تؤمل النجاح في مهمته وأنها مطمئنة على سلامة الدولة ما دام يعضد ما في ادارة الملك والدفاع عن حقوق السلطنة أمثاله من الرجال الماملين فرد عليها شاكرًا حسن ظها وقد ضمن كلامه بعض التلميح في ضعف سياسة المصنف في ولين جانبها ازاء هذه الصعاب فلم يجبه صديحة الا أنه فهم ما لكلامه من الاثر في نفسها

تحرك جيش الاندلسيين وعنى رأسه ابن أبى عامر حتى تقابل

(١) تاريخ الاندلس لفضيا باشا

ساحرة وهالم يمض على حديثه مع رفقاته في الجامعة أمداً كبير حتى نال ماتني . هاهو الآن أكبر رجل في قرطبة وهامى الانظار موجهة اليه وهاهو التاريخ خص له في طبائعه صحيفه ييضاء لتدوين أعماله المجيدة ، ان الآمال التي كان يتصورها والمشاريع التي كان يرسمها وهو جالس في حانوته الصغير بميدان قرطبة امام القصر قد تحققت جميعها . ذكر ذات يوم لاصدقائه بأنه سيكون حاكم الاندلس الفذ وهاهو الآن الحاكم الحقيقي للاندلس ومن اكبر رجال العالم الاسلامي

بأمراء الفرنجة والتحم مجيوشهم في معارك شديدة انجلت عن هزيمة الاعداء وانتصار المسلمين واستيلائهم على بعض المدن عدا الاسلاب الوافرة والغنائم الكثيرة ، وبعد حروب دامت خمسين يوماً عاد ابن أبي عامر الى قرطبة مقر الملك، منصوراً غانماً، تحف به رايات الفوز والظفر (١) لقد برهن على دراية تامة في قيادة الجيوش وأظهر صفاته الحربية الفروسة في نفسه ومواهب الفروسية الموروثة عن آباءه فأجنته الجنود ودهش من أمره من أن كان يظنه على جهل بأمور الحرب وقد أعد القوطيون لاستقباله يوماً مشهوداً وكان في مقدمة المحتفلين بقدموه الاميرة وابنها الخليفة هشام وقد أغرقاه بطوفان من الانعامات وحسن الاستقبال وكان هو كمداته في كل الامور البطل الموفق ؛ مظهر احترام الاعيان والاشراف ومعقد آمال أهل القصر ورمز أمان العامة وطبقة الشعب ؛ وقد أجمع الكل على تسميته بالنصور ، اعزازاً له واكباراً لشأنه ، واعترافاً بخدمته في تلك الحروب أصبح الآن لا يحفل كثيراً بالمصطفى . وعلاقاته بالخليفة رسمية تحضه ، لعدم بلوغه سن الرشيد أما صبيحة فحدث عن منزلته لديها ولا حرج فهل يوجد في العالم مخلوق أسعد من المنصور ؟ ها قد تحققت آمله الذهبية الواحدة تلو الاخرى بقوة

بمخصصها بمجبه تسكافى هذا الحب ؟

إني استنداداً على أعماله وعلى ما أظهره بعد تمكنه من إدارة الاندلس أقول : انه لا يجيبها !... وإنما كان يحترمها ويظهر لها دلائل المودة والاعتبار ، لأنها سبب نعمته ومنشأ رقيه واليه يرجع الفضل في السعادة التي برفل في مجيئها الآن

قد ظهر الآن أمامها بنوبه الحقيقي وأصبح يأنف من رؤيه يدها - تلك اليد التي طالما قبلها بأعزاز وتقديس - تشترك معه في الحكم منذ أصبح يشمر بأنه في غنى عن حياتها ، نعم كان يتوق الى رؤيه الاوامر غفلا من اسمها ليس عليها الا كلمة النصور غير أنه لم يستطع أن يرفع لواء عصيانه دفعة واحدة فظل محافظاً على سابق مودته لها ، يكلمها بلسانه المندب ويعاملها بلطفه للمهود ولا يقصر في أمر يكون فيه راحتها ، وهو هو في كل أطواره وحر كاته التابع الامني والخدام الخالص للعرش والخلافه .

عرضت عليه ذات يوم جارية ليشتريها وكان نخاسها قد لقيتها بعض أبيات وأمرها بأنشادها بين يديه دخلت الجارية قصر النصور وهناك في حضرة امم جمع حافل من جلسائه غنمت تلك الابيات بصوت رخيم ، فاسترعت الاغنية مسامحه وأخذ يصنى اليها باهتمام زائد وهو يرفجف من غضبه وما كادت تم الانشاد حتى هجم عليها شاهرا سيفه والقهاها على

الفصل الثامن

استفحل نفوذ النصور وارتفعت كلمته في شئون الادارة والسياسة (١) وبنى له قصرًا فخماً بجوار قرطبة بل قل مدينته الصغيرة التي سماها (الظاهرة) فنقل مأمور والدولة مساكنهم بجوارها وأسس التجار والباعة أما كن لهم على مقربة منها حتى أصبحت تضارع في شهرتها بيت الزهراء .

كانت الظاهرة محاطة بالحدائق الفناء والبساتين الزاهرة والأحواض الجميلة وبها من دواعي الأنس وموجبات السرور ما يشهد لمنسحقها بالذوق وكما شهدت هذه المدينة من ولائم النصور واحتفالاته العظيمة ، تلك الاعراس التي بهرت أنظار الاندلسيين وأوقعتهم في دهشة من مظاهر تلك الرفاعة !!

هل كان النصور ، وقد وصل الى هذه المكانة وارتفع الى تلك الغاية التي ليست وراءها غاية يحب صبيحة وهو في حالته هذه ؟ أم أن ما يجيش بصدوره من الاحساس لها هو أثر من آثار الشكر والامتنان لحسن صنيعها معه ؟

كانت الاميرة صبيحة تحببه وتقدس ذاته الى درجة الهيام وليكن هل كان لشعورها هذا رجع صدي وهل كان محمد النصور

(١) تاريخ الاندلس لغيا باشا

الوحيد جعل اسبانيا جميعها في قبضة يده (١) وسرعان ما تراكمت أعمالها بالنجاح، وأعقب غزواتها هذه غزوات أخرى عقد المنصور في جميعها رايات الظفر، حتى أصبح شخصه طلسم النصر لجيوش المسلمين لا يشن على الأعداء غارة إلا يعود منها غنائم وأجرا.

واذنها منمكن في خوض غمار الحروب وإعلاء شأن الأندلس خارجا، كانت صبيحة تدو شئون البلاد وتشيد ما يخلد ذكرها في التاريخ (٢) أما المصحفي فلم يبق له بعد ذلك أدنى نفوذ وأصبح يشمر متألما بأفول نجمه وإدبار طالعه لقد انقض من حوله الناس ولم يبق من يعضده من الأمراء (٣) والكبراء وقد أذى الكثيرين منهم بغروره وكبريائه أليم أن كانت له الدنيا ومع ذلك عز عليه أن يترك مركزه بسهولة وانقياد فأراد أن يجرب حظّه ويقاسر بأخر جهوده، علم شأن غالب فأراد أن يتقرب إليه بأن يزوج ابنته اسماء من ابنه عثمان وما كاد يخطر في باله هذا المشروع حتى كتب إليه في الحال يمرض عليه ذلك ففكر غالب في الأمر مليا وقلبه على وجوه كثيرة، وفي النهاية اقتنع بنفع هذا الزواج فكتب إليه يخبره بالقبول ففرح

(١) تاريخ الأندلس

(٢) تاريخ الأندلس لضياء باشا

(٣) دوزي

الأرض تتخرج بدمائها (١)

لماذا — لان الجارية نطقت بأبيات مضمونها التلميح بعلاقته مع صبيحة فلم يحتمل أن يرى اسم الأميرة مضنة في أفواه الناس فأنزل العقاب بمن تجرأ على تلويث ذلك الاسم أمامه وأمر بجمع واحراق ما قيل في حقها من الهجاء وبجازاة قائلها بشدة دلت على مكانة الأميرة من نفسه

كان لا يشغل باله في هذه الفترة الأمر واحد أفلقه غاية الفلق، هو استكانة المصحفي وظهوره بمظهر الضعف أراد أن يتخلص منه لان حاجب البلاد ترك مصالح الامة ايلتفت الى مصالحه الشخصية وكان المنصور يظهر هذا الأمر لصبيحة ويشير اليه من طرف خفي وكانت هي كلما أمعت النظر في احوال المصحفي ازدادت وثوقا بصدق أقوال المنصور الذي كان يجتهد بإعلاء شخص آخر بنسبة اجتهاده في اسقاط الحاجب، هذا الشخص هو القائد غالب وقد تمكن أخيرا بمؤونة المنصور وحسن وصايته ان ينال رتبة الوزارتين (٢)

بعد هذا وضع المنصور يده في يد غالب واخترقا حدود المملكة في سبيل شن الغارة على اعداء البلاد، حيث كان أملة

(١) ابن الاطهارى

(٢) ابن خلكان

المصحفي بذلك وقد كاد يطير من شدة ماناله من السرور وشاع خبر هذه الخطبة وذاع، حتى وصل أسماع النصور، فلم يشأ أن يصدق بأدى ذي بدء إلا أنه عند ماتحقق صحتها استشاط غضبا والتجأ الى كل باب من الابواب التي رآها مؤدية الى منع هذا الزواج وكان منه أن استدعى غالب ووسوس اليه بالضرر المائد عليه من أمر الخطبة وإن زواج ابنته من مثل عثمان لا يولد شرفا ولا يكسبه نفرا لأن المصحفي لا ينتسب الى بيت حسب ونسب فاعتار غالب في أمره ولم يجد لنفسه مخرجا من ذلك المأزق. لم تكن حفلة الزفاف قد جرت بعد، إلا أن الخطوبة كانت قد تمت فماذا يفعل الآن ولقد ندم ولاندامة الكسبي؟ ولكن لات حين مندم: فاكاد النصور يرى منه ذلك حتي أضرم في نفسه ما يذكي نيران ندمه بقوله: « ان ابنتك جذيرة بمثلي فهل تقبل أن تزوجها مني؟ »

أدهشه هذا التصريح لانه ما كان يعتقد بنوال مثل ذلك الشرف، فقبل مسرورا أن تزف ابنته الى أكبر رجل تعرفه الاندلس، أما النصور فكان فرحا في سره لئلا يكسبه من احباط خطة منافسة المصحفي، فأصبح بعد ذلك من أسهل الامور عليه عزله من منصبه لاسيما وقد كانت أغلظه ظهرت لصبيحة، فتم له ما أراد وزاد من نكايته له وجوع غالب عن كلمته ورفضه زواج

اسماء من ابنه عثمان .

ارتقى المنصور الى درجة حاجب، أي وزير الوزراء، كما كان المنتظر !! فيكون قد وصل الدرجة الأخيرة من عرش آماله الذهبية وجلس مفتخرا على أريكته العاليا، ولقد أصبح بعد تلك الحادثة معكس أنظار العالم الاسلامي في جميع الاقطار اذ كان رقيه سريعا، مدهشا لدرجة انه هو نفسه كان في حيرة من أمر هذه السعادة وحسن ذلك الطالع .

أرايت أيها القارئ كيف يكون سحر الحب وفعاله المجيب !. الحب هو الذي خلق هذه المعجزة والحب هو الذي أخذ بيد كاتب صغير لم تمنحه التجارب الى ذروة المجد وسنام العظمة . الحية يكون بالمنصور ، الحائمون حوله، ذهولوا من رقيه السريع بينما كانت صبيحة تبارك نفسها لاتحافها الاندلس بنابغة قل أن نجود الاجيال بمثله (١)

مصاهرة المنصور لقائد مثل غالب ، صاحب المنزلة الكبيرة في نفوس القبائل القاطنة صرا كثر وشمال افريقية ، أمر ارتاح اليه جد الارتياح، حيث كان يطمع في مد نفوذه وشهرته حتى تلك الاصقاع فكهم الليالي وهو يذهب بتصورات الى تلك البلاد ويبني القصور والعمالي لادارتها وتسخيرها لخدمته كما يريد ويشاء فها هي الان في مقدوره ومتناول يده

الأمر ما يوجب القلق .

بمثل هذه الآمال كانت صبيحة تعمل النفس الى أن تم الأمر
وزفت أسماء الى النصور ، حبيب الأميرة وأقرب الناس الى
نفسها ، في العام السابع والستين بعد الثلاثمائة من الهجرة النبوية
كانت الحفلة من أحسن حفلات الاندلس في التاريخ ، وذات
ليلة ، لموكية قل أن يسمع الزمان بمنزلها ، وقد زاد من بهائمها ألف
الأميرة نفسها كانت زينتها وبهجتها . أما موكب العروس فحدث
عن فخامته ولا حرج . تقاطر الناس لرؤيته من كل صوب وناحية
مدحوشين من عظيمته وجلاله . ولقد شاعت الاقدار أن يكون
ختم المرسى ياسى مقرونا باليمن والسعادة فقد كانت العروس ذات
جمال نادر ، على جانب عظيم من الظرف والكياسة والادب فافتتن
النصور بها وملأت نفسه بملاحتها الروحية ، حتى أصبح لا يرى
غيرها من النساء ولا يصبر عنها ساعة واحدة . لقد أحبتها محبة غير
محدودة ، حباً يماثل غرام صبيحة له فنصور حالة الأميرة الروحية
اذذاك وهي منزلة في بيت الزهراء ، تقاسى مرارة الهجرة . .
لم تكن صبيحة اذذاك في نضارة الشباب . لقد انقضى
موسم الأماني العذبة وفات وأن الاسترسال في التأمل والتخيل .
لقد انطفأت شمعة آمالها ولم يبق لديها ما يذكى نيرانها ، فليس
أمامها الا رماد من اليأس . لقد أنزلت بعض اختيارها الستار

لندخ المنصور جانبا بين آماله وأمانيه وتفكر قليلا في حالة
صبيحة الروحية في تلك الفترة ؟ فالى أى حد وصلت تصوراتها
يأتى ؟ وكيف قابلت تلك الصدمة ، صدمة زواج حبيبها وأعز
مخلوق لديها بامرأة أخرى وكيف رضيت هي بمثل هذا الأمر
وأمكنها اسكت النزاع القائم في نفسها وامتلأك شعورها والتوقيع
على عقد النكاح بيدها ودعوة غالب وابنته الى قرطبة ومقابلتها
بجفاوة وسرور

لم يكن في مقدورها تدبير أمر بمكس هذه الحالة لانها لم
تستطع أن تجري مع عواطفها . لقد منعها مركزها السامي من
اظهار ما في نفسها من الآلام والآمال . ان سمو مقامها وقفد في
سبيل منع المنصور من مثل هذا الأمر المؤلم ، فلم تر بدا من
الاستسلام لحكم الاقدار ومقابلة الغربة بشجاعة وثبات . لقد
أبدت شجاعة تفوق حد التصور والادراك في كتم عواطفها ،
وظهرت بمظهر الرزانة الجديرة بمسكة جليلة القدر عظيمة الشأن
فأشرفت بنفسها على حفلة الزفاف التي دفع الخليفة جميع نفقاتها . قد
يكون في نفسها بقية من الأمل ولم لا ؟ لم يكن الغرض من هذا
الزواج سياسيا ؟ ان الزواج المبني على غرض مخصوص يكون
ذا أساس واه لا يبشر بدوام البقاء والخلود . كان الغرض من هذا
الزواج أن يكون سهام تحميم مسددة الى صدور المصحفي ، فليس في

على رؤيا غرامها ، واضطرت أن تفتح عينها في نور الحقيقة اللؤلؤة ؟ ...

ولكن بعد هذا ما ذاهي فاعلة؟ وما الذي تستطيعه وبأى الألوان تصبغ حياتها الآن؟ هل تنزل الى حدائق قصرها وترمي بنفسها في أحضان الورد والزنابق والياسمين لتجد التسلية في مناظرها وما يتصاعد من شذاها وعبرها؟ انها الآن في خريف العمر ومن كان في مثل سنّها لاتسليه هذه الاشياء. ان هي الا امرأة بائسة كسيرة الخطاير، انتهى غرامها على غير ما تشتهي، ولكن قيد حم القضاء ووقعت الواقعة فنزلت بندان عشقها وانهار، فهي الآن تشاهد بين الانات والاهات أنقاض ما تخرب من احساسها وتنتظر وعيناها مملوءتان بالدموع في القطع المبعثرة من آمالها الحطمة، فتشقى على نفسها عند ما ترى الاجنحة الدامية من خيالها السابقة ترفرف حائرة على تلك الخرائب

كان تقهرها مدهشاً في التحول الهزيمة !! ما أقرب الاتصال بين تقطى الفوز والاندحار !! ليست السعادة اذن الاغشاء واهي الجدران، مؤسسة دعائه على شفاهاوية عميقة ولكن ما الفائدة؟ كل هذه ملاحظات تود الخاطر بعد فوات الوقت وضياح الفرصة ...

تحملت صبيحة ما أصابها وتلفت الضربة بشجاعة نادرة ولكنها بدأت في سبيل ذلك ثمنا غالياً، هي دموع القلب التي كانت تسكبها وهي جالسة على عرش الحكم والادارة. بالله كم كانت اناشيدها التي ترونت بهافي ليالى الصيف مؤثرة حزينة ذات نغمة محروقة؟ لا ريب انها بعد الانتهاء من اناشيدها كانت تفتح غرفتها تترحب بالنسيم وربما ألقت في مسامحه ما يخفف من لوعة قلبها

فان الصبار يح اذا ما تنفست* على كعبد حراء قلت همومها من لنا الآن بمعرفة كلماتها في تلك الساعات التي كانت تملو فيها الى النجوى ولكن هيهات قد اطارت نسبات الادلّس تلك الكلمات وقذفت بها الى أعماق الانهائية

أيضاً وتكملت مساعيها بالنجاح

أنه كان مضطراً إلى النظام بالاحترام والخضوع لولية نعمته
ولكن نظرات الاميرة كانت تتخلل ماوراء هذه المظاهر من
حقيقة مؤلمة فتشعر بمخالف هذا الاحترام من فتور واضح .
ففى الامر فليس ثمت داع لاعادة الماضي بذكر يانه العذبة وخو اطره
الذيذة أمام أبهة الحاضر

لم يكن المنصور من أولئك الذين يتأثرون بالذكريات الماضية
من أيام صباهم وأزمان لهوهم ان الوقائع لتمر به تاركة أثراً خفيفاً
في حياته . انها لا تسطر مكتوبة على الرمال تعيث بنظامها أخف
الرياح هبوباً فلذلك أمر بأن يقرأ اسمه في خطب الجمعة مع اسم
الخليفة ، غير مكثر لنقد الناس ومائلو كه السد منهم

صادر الناس يقرأون اسمه على النقود ويشاهدون توقيعه في

ذيل الأوامر والقرارات

ولكن ألم يعمل على راحة الشعب وطماننته ؟ أليس هو
الساعى في نصب ميزان العدل في ربوع الاندلس فلا تستكثر عليه
اذن طموحه الى لقب (الملك الكرم) بعد أن كان حاكماً

الامة لا تنسى خدماته وما آثره فلا تستغرب سكونها الآن
ازاء هذه الظاهر الجديدة ، أما الخليفة هشام فكان في هذا الوقت
المعصيب مزروباً في مجاهل القصر ، بعيداً عن أضواء السياسة

الفصل التاسع

أخذ المنصور يمد على مهل سبيل حصر النفوذ في يده فأبدل
الذين توسم فيهم روح التمرد والمصيان ومجاهة ما كان يتصوره
من الآمال والاحلام ، وتقام من قرطبة مركز الحكم والخلافة
حتى لا يكون بينه وبين ما يرمى اليه حاجز أو عقبة ، فغرب يده
من حديد أولئك الذين أرادوا الدخول في شئون الادارة واحداث
القلق والاضطراب حول عرش سلطانه المطلق

كان لا يقبل نصيحة انسان ويفهم الذين حول به بكل حركاته
وأطواره أنه في غنى عنهم وعن مشورتهم وما يقدمونه من مناصرة
ومعاصدة

أصبح الآن يتضايق حتى من نفوذ جمه القائدا غالب وقد تمكن
أيضاً من ابعاده كما أبعدا الصحفي من قبل

هنا في هذا الموقف لم يبق بينه وبين أن يعيش حر التصرف
كما يشاء ويهوى الاطل شخص واحد ، ذلك الظل هو الاميرة
صبيحة

نعم أصبح لانيهم كثيراً بما لها من نفوذ ولا يعبأ بسيطرها ،
ففكر في أن يتخلص من نفوذ هذا الظل أيضاً وسعى باحثاً عن
الوسائل اللؤدية لدفعه دفماً حينئذ الى أن توفق الى هذه الغاية

وكانت الظروف في جانبه لان هشام كان لا يراه الناس في الجامع الا قليلا واذا خرج من قصر لا خور متزها خرج وهو ملتف بالبرنس فيكان يرى بعين الخيال وهو مسرور مشرح الفؤاد أن آماله ستتحقق بلا اضطراب ولا شغف

فهبت صبيحة صراميه وشمرت بأغراضه ومقاصده فأرادت أن تواقبه من على كسب ولم تطق بعد ذلك استبداده ولم تستطع صبرا على رؤية العرش مهدداً فزجت بنفسها في الميدان لتحافظ على كيانه ابنها وتتخذ عرشه

بنات كل مافي نفسها من جهد وعزم ، الا أنه لم يكن في يدها الآن شئ من القوة

وقد شمرت بهذه الحقيقة عندما تقدمت الى الميدان ورأت أن رجال النصور وأعوانه شاغلون أهم المناصب في أقلام الحكومة وادارتها وفي كل ركن من أركان الادارة حتى في قصرها بيت الزهراء كانت تهم فيصادفها ألف عقبة وعقبة ، تتقدم خطوات الى الامام فيتقابلها عنرات وموانع . لم تكن مالكة لاستئلاها ، لقد كبلها النصور بخيوط دقيقة تخفي على الناظرين ولكنها خيوط قوية يصعب الافلات منها ، فصبرت حتى اشتدت عزيمتها وقام في أعماق نفسها دافع يسوقها الى رفع لواء التمرد والمصيان اذ كانت تقول في سرها ما هذه الجراة ومن أين لأبي عامر كل هذا النفوذ أين

وضجيج الادارة ، متقادها هو مخر بأيام شبابه بلا نفق ولا جدوى . قدتمر عليه فترات يحلولة فيها التجرد عن الماديات والغوص في لجج الروحانيات فيزهد رؤية الناس كثيراً وينكمش منز وبالمدة طويلة . هذا هو الخليفة هشام ابن صبيحة ، وعلى هذا الطراز كان يقضي أيام حياته

قال مربيه : (ظهرت عليه في صغره علائم الذكاء والفطنة) الا أن تربيته التي تلقاها منذ وفاة أبيه لم تكن كافية لانضاج مداركه والكمال مواهبه فظل ابن الحكم وحفيد عبد الرحمن الثالث خاملا وعاش عاجزا جباناً متردداً عارياً عن العزم والادارة ، أقل الملوك شأناً في أسرة بني أمية

هذه الاخلاق الضعيفة ، حركت عوامل الطمع في نفس النصور وحدت به الى الطموح نحو العرش وجملته يرم على ارتقائه العرش في بيت الزهراء بدلا من هشام كان (الملك الكريم) فأراد أن يكون الخليفة

اختلف المؤرخون في هذا الامر لأن معظمهم يقول بقيام هذا الامر في نفس النصور وأنه سعي جهد ، لاخراج مشروعه من دائرة الفكر الى حيز العمل ولولا خشيته من النتائج لثم له ما أراد اهتم أولاً أن يكون الخليفة منسياً من شعبه دون أن يزعر أركان الخلافة فسمي في أن يقلل خروج الخليفة من قصره

الواقعة ورأت اقتراب الماصفة التي تسكاد تقطع عرش ابنها انه محتم عليها ان توقظ هشام من غفلته العميقة وقد تم لها ما ارادت فسمعت في تنفيذ خطتها سرا دون ان تدعو محمدا المنصور يعلم فانها كانت تذهب صباح كل يوم لزيارة ابنها في غرفته الخاصة وتورده الاحاديث الطويلة والباحت المهمة لنزول ماعلى قلبه النافل من صعدا العطالة والخرود

تعبت في سبيل غرضها وسهرت الليالى الطوال ترتب الدروس المؤثرة التي تحرك النشاط في هذا الدماغ الماطل ، فشقت وتألمت وكدت ، لكن مساعيها أثرت وظهرت لها نتائج خطيرة ذات بال ، فقد حدثت معجزة في بيت الزهراء ، استيقظ هشام من نومه ، استيقظ الخليفة النهمك في أدواقه من تلك النغلة ، دبت في نفسه عوامل الحياة وأراد ان يدخل المتحرك ويشترك في الحكم وأن يفهم ويشمر وتكون له ارادة وسلطان

استمرت صبيحة تلقى على ابنها دروس الانتباه واليقظة حتي استفاد من سبات غفلته وتذوق طعم الرياسة وحلاوة الامر والنهي بدرجة استرعت انظار المتقنين حوله بما فيهم المنصور ، وهو أكثرهم دهشة وأشد حيرة وقد علم ان هذه المعجزة الباهرة انما أثر من آثار صبيحة

صار الخليفة الان يشدد النكير ويبحث وينقب ويطلب

كنت انو كيف أرى ذلك بنفسى أه ان الرجال الشاغلين للوظائف في قصرى كلهم مهم وفون لدى ولكنى ، أعلم انهم من اتباع المنصور كيف لها ان تعلم ذلك . لم يكن وقتئذ فرق وأحزاب ورجال تخبز لرجال كانت متحدة مع المنصور فكرا وعقلا ، متفقة معه قلبا ولسانا . كانت يدها مع يده في كل أمر وكل مشروع ، فترى فيمن يعينهم المنصور أنهم رجالها الصادقين فليس سبيل الى سوء الظن ، كان الزمان زمان اخلاص واتحاد ما اليوم وقد زال ما بينهم من طمانينة فابتدأ اراقبان حركات بعضهما وقد تنقب كل منهما بهرق النفاق فهي الان تنصب له الفخاخ سرا وقد علمت بآماله وأمانيه فسمت أولا في جعل رجال القصر محبين منها وقد أظهرت في هذا السبيل حجة جدرة بالتقدير والاعجاب

تبدلت الحال بغير الحال وصار قصر الزهراء مسرحا للفتن والدسائس وصبيحة ترأى ذلك بسرور ولا تالجدها لانقاذ ابنها ونفخ روح الحياة في نفسة الخالدة

ما كانت تهم بذلك قبل الآن وتسمى في ايقاظه من ذلك الجحول فقد كان عاجزا خالدا لا يشمر بالحاجة الى سؤال الوزراء عما يفعلونه أو يدبرونه من الامور

لم يسبق لصبيحة ان اهتمت بشأن ذلك العاجز المسكين وأن ترجع اليه في الشؤون الخطيرة ، أما الآن فانها تشمر بعد ان وقعت

الايضاحات اللازمة عن حساب بيت المال ووجهه الى المنصور
أسئلة دقيقة ما كانت لتخطر له بال حتى انتهى به الامر الى أن
يعامله بفتور وبرود

لم يكلف المنصور نفسه غناء البحت عن سبب ذلك . كيف
يسأل عن السبب وهو لا يرى مولاه الخليفة ولا يتقابل به الا
محضور والدته صبيحة ؟ أظلمت الدنيا في وجهه وشرع يتلمس
سبيلا لتقاومة الخطر فصال صولة في ميدان الكيفاج انتهت
بطرد وإبعاد بعض من أشده في اخلاصهم من موظفي قصر
الزهراء ولقد غضبت صبيحة لهذه الصدمة غضبة مضرية ، كت
سبباً في اشتداد عزيمتها وزيادة همتها فأعملت فكرها لتنتقم لنفسها
من هذا التفريم الشديد للبأس واهتدت اخيراً الى فكرة سديدة
فاستدعت بعض عبيدها المحررين وكلفتهم بالتوجه الى جهات
مختلفة من الاندلس وافريقيا ومراكش لأفهام الشعب بركز
خليفتهم واذاعة خبر ضعفه وطموح المنصور الى مقام الافة ،
فراجت اشاعتهم وانتشرت في طول البلاد وعرضها ومنها علم
الناس ان خليفتهم وقع في أسر ظلم معنوى وانه راغب في التخالص
من هذه القيود ليحكم شعبه على سنن العدل ومناهج الانصاف
لولا حيولة المنصور بينه وبين ما يريد

أدي رجال صبيحة ما كلفتهم به بأمانة واخلاص فاجتازوا

جبل طارق الى افريقية وتمكنوا من اكتساب مودة ومظاهرة
والى مراكش لهم وهو يومئذ زيري بن عطية الشهير ، زعيم قبيلة
الزيرين وما كاد يسمع بهذه الحوادث ويعلم ان الخليفة تحت أسر
المنصور واستبداده المعنوى حتى احتدم غيظا وشرع في تجريد
قوة من رجاله ليرفع لواء العصيان والتمرد في وجه المنصور ،
انتصاراً لخليفة البلاد ولكن كان يعوزه المال لتنفيذ العمل ، فسرت
صبيحة بهذه النتيجة وبادرت باسمافه

كانت خربة الدولة في دائرة خاصة داخل قصر الزهراء وبها
من الأموال ما يقدر بنحو ستة ملايين ديناراً فسحبت الاميرة من
المال مبلغاً قدره ثمانون الف دينار وضعت في مائة جرة مختومة أقامها
بالعسل ، دعماً للظنون والشبهات ، ودفعت هذه الجرار الى رجال
أمناء لتوصيلها الى مكان معين وبذلك تمكنت من ايصال المال الى
مراكش بأمان وسلام

كانت صبيحة تعلم قدر والى مراكش وتعلم انه الرجل الوحيد
الذي يستطيع مقاومة عدوها المنصور وبذلك لم تال جهداً في
مساعدته . على أن خبر هذه المساعدة اتصلت بسماع المنصور ،
فأفرغ في روعه لانه لم يتوقع حدوثها وكأني به يقول هل للخليفة
علم بذلك ؟ او كيف تمكن واخرج المال من أبواب القصر ؟ اشتدت
حيرته واضطربت احشائه بنيران الغيظ والكمد وأصبح ينظر

الى افق المستقبل فيراه متبادلا بسحب الاكدار وغيوم الاضطرابات
فهل هو الا ان امام عاصفة قريبة تقتلعه من مركزه ؟ كل هذه أمور
فكر المنصور فيها مليا وبعد طول البحث واجهه الفكرة استدعى
وزراء الحكومة ووكلاء الدولة لجلس عام عقده في قصره حيث
أبلغهم بمحدث سرقة مبالغ كبيرة من مال الدولة وانه علم بعد
البحث والتنقيب أن السرقة تمت بدلالة نساء من قصر الخليفة وعلى
أود هشة الوزراء بذلك اقترح عليهم نقل الخزينة الى داثرة أخرى
بعيدة عن مكانها الحالي فأقره المجتمعون على ذلك . وبينما كان الرجال
المكلفون بتنفيذ الاقتراح على وشك نقل الاموال المودعة بالخزينة ،
دخلت عليهم صبيحة وصاحت فيهم تقول : « ما هذا الجراءة : كيف
تقدمون على ارتكاب مثل هذا الامر دون اذن الخليفة . اننى أمركم
الاتمسوا الخزينة لانه غير راض عن نقلها الى مكان آخر »

لم يجد اتباع المنصور بدامن اطاعة الامر اما الملك الكريم أى
المنصور فاشتدت حيرته وزادت همومه حينما بلغه الامر ولكن
كنهه في أعماق نفسه مكرها مرغا والاذا الذى يستطيعه وكيف
يخالف امر الخليفة جهاراً ويرفع لواء العصيان في ظروف قاسية
لا تسمح بأدنى خلاف بينه وبين المرش ، لاسبيا وقد طرقت
مسامحة الاشاعات التى اجتهدت صبيحة فى ترويحها بين عموم
الشعب ؟

لا يعرف الناس شيئاً عن هشام ولا ذكروا الاسم ولكنهم
ما زالوا يقدسونه في نفوسهم لانه ابن الحكم وحفيد عبد الرحمن
وسليل الأسرة الاموية ، اذن ليس فى الامكان اظهار التردد جهاراً
بيانا فانه الطريق المؤدى الى تحويل مجرى الحوادث ؟ هل يقبل
المنصور على نفسه الانكسار والخضوع بعد ان وصل بكده
وبسعيه اوج الذم والاقبال ؟ انخفض الان جناحيه بعد ان كان
يسطهما لحماية سواه ؟ كان لا يحب رأسه ولا يرضى بالمذلة يوما
ما . كان سلطان الماضى وهو الآن امير الحاضر فيجب على المستقبل
ايضاً أن يلطيمه . كيف يرضى المنصور ، ذلك البطل الذي رفع
لنفسه لواء نغم دائم الخفقان فى طول البلاد الاسلامية من أقصاها
لاقصاها أن يذهب ضحية حيلة سياسية انتهت بصبيحة كيف يستطيع
صبراً على الاندحار بعد تقدم دام عشرون عاما كن عليه ان يواجه
الخليفة بغيره . ان هشاماً لينحني امام وزيره اذا تقابلا على حدة
دون ان تكون معه والدته ، تهضده وتظاهره . كان المنصور يعلم
موضع الضعف من مولاه الخليفة ويعلم انه لا يستطيع ان يقابله
بهود وان يشدد عليه النكير الا اذا كانت معه الاميرة اما اذا لم
تكن هى بجانبه فكل عزم الى ضعف وكل شجاعه تنقلب الى جبن
وانهزام وكانت صبيحة تعلم هذا الامر وتري أن انها لا يستطيع
الثبات امام نظرات وزيره الحادة ولا يتمكن من الدفاع عند

وأشهدهم على هذا الاعتراف بعهد موقع عليه من الخليفة ومدون فيه ما تعهد به لوزيره شفوياً (١) وقد أمضى عليه الوكلاء لاثبات شهادتهم

حدث هذا الأمر في العام السابع والثمانين بعد الثلاثمائة من الهجرة وهذه الحادثة نال المنصور أكثر مما كان يتمناه وبحلم به بسهولة لا تخار على بال

أعلن العهد بعد ذلك وعلم الناس بخبره فأصبح من العبث التمرد والعصيان في سبيل سلطان عاجز عن الحكم، يعترف بلسانه أنه ضعيف فاتر العزيمة، بكل أمور الدولة ومهام السلطنة إلى وزير صادق هو المنصور - لم يكتف بهذا الانتصار بل أراد أن يظهر للناس أن خليفتهم وقع على العهد باختياره وإرادته وأنه لا يوجد ثمت خلاف أو نفور بينهما، فاستصوب أن يخرج إليهم بجانب الخليفة راكباً فرسه في موكب عظيم لهذا الغرض وقد تم له ما أراد. ما الذي يستطيع أن يعله الإنسان لا سير لا يشكو من أسره، يعيش باختياره تحت النير، لحاكم يعترف بعجزه عن الحكم، لسلطان لا يتأثر من التنازل عن نفوذه واقتداره لغيره، لخليفة لا يرى بأساً من الخروج إلى شعبه غداة اعترافه الخجل. اللهم لا شيء سوى الأسف والتألم ولقد كان من حسن حظ

ما يسئل عليه لسان طلاقه وسلاح بيانه ولذا كانت نخسى عاقبة تلاقيهما على انفراد وتخاف ان ينهدم بناء سياستها رأساً على عقب في لحظة واحدة انما المنصور سمى، واجتهد حتى توصل بمعوة رجال القصر أنفسهم إلى مقابلة مولاه مقابلة سرية دون أن يعلم به أحد. كانت الاميرة صبيحة ماذة ذات سياسة وتدير حتمتها الظروف والايام وزادتها التجارب خبرة في الحياة وانما لم تكن سعيدة الحظ مثل المنصور ولذا كتب عليها الاندحار والفشل في نهاية الامر

عند ما مثل المنصور بين يدي الخليفة لم يعباً بما نال مولاه من الدهشة والاضطراب بل ابتدأ الكلام بما يريد من القول بسلاسة وطلاقة اشهر بها حتى أثر على الخليفة، ضيق دونه المذهب ففسى أنه الخليفة وأنه صاحب النهى والأمر وأن في يده قوة غير محدودة ونسى تعلجات والدته ووصاياها أمام نظرات المنصور وأمام سحر بيانه وطلاقة قوله لم يتردد في الاعتراف بعجزه (١) عن الحكم وتدير الملك وأنه سيمتاز له عن كل سيطرة وساطان ولا يتدخل في شئون البلاد وأنه يرضى بنقل الخزينة خارج قصره اذا شاء وزيره المنصور. لم يكتف المنصور بهذا الاقرار بل انتهز هذه الفرصة واستدعى بعض وكلاء الدولة

همة صبيحة أكبر من أن تكل ونفسها العالية لا ترضى بحياة العظالة والكسل لم تتدخل في شؤون الإدارة ولكنها خدمت أمته من طريق آخر وعملت على سماعتهم ورفاهتهم من سبيل غير سبيل السياسة ، فقد بذلت مافي وسعها لإنشاء المساجد والمستشفيات وبناء المدارس والملاجئ وبينما كان المنصور يدير حركة البلاد عهارة وحذق ويحتم حروبه بالنصر والظفر ، كانت هي تحفر الجداول والعيون وتنشئ القناطر والجسور وتجهد في اكتساب حسن الاحدوثة وجميل الذكرى بين قومها ، ان أعمالها النافعة وحدها ناهي المدينة أدهشت حتى جيرانها أمراء الفرنجة الذين لم يتماكروا من اعظامها واجلالها والاعتراف بها من فضل وخير فأقاموا الحفلات بشرف ذكرها عند انعام طريق مائى مهم وقدر كزوا عليه لوحة لتخليد ذكرها بهذه العبارات « بنى هذا الطريق المائى بهمة الاميرة صبيحة أم أمير المؤمنين الخليفة هشام جزاها الله خيراً فيمرونها وفضلها لم تحرم ولايتنا (السيجيا وكرومونا) (١) من الماء ، أما المنصور فقد وجه همته الى رفع شأن الاندلس بالغزو والحروب فاستتب الامن داخلا وارتفع شأن البلاد خارجا وأصبح هو حاكما المعروف بالشجاعة والكرم والتصف بالعدل وحسن الإدارة . وفي العام

(١) كوند

المسلمين ان وجد في عصر حاكم عديم الحس مثل هشام ، وزير مقتدر مثل المنصور ليستبد بأمور الدولة فلو بقي زمام الحكم في يد الخليفة لما تردد من فتح أبواب قلاعهم لامراء الفرنجة وان التاريخ لا ينسى قوله للعصاة وهو في مجبسه بعد وفاة المنصور « انتقدوني وأنا أعدلكم حتى بالعرش » (١) فهل هناك (٢) أمل في انقاذ حاكم هوى بنفسه الى هذه الدركة ورضى بأن يشرب كأس الهوان حتى النجالة لم يكتب للورخون شيئاً عن حالة الاميرة عند سماعها باعتراف الخليفة وماذا عساه ان تقول فيمن لا ينجل من ترجيع الاسر على الحرية بعد سعيها للتواصل في سبيل ذلك فاذا استطاعت أن تعمل شيئاً بعد ذلك فلمن ؟ هل لا ينهال القاتل بنفسه (لا أريد ان أحكم في بلادى) ان دناءة انبها كان انكساراً ثانياً لا مألها . لم تكدر جراحها التي أدامها المنصور تلتئم حتى أصابها انبها بجرح آخر في صميم قلبها ادعى احساسها الوالدى .

مع كل ما مر بها من الآلام وما عانت من المتاعب لم تشأ ان تريح نفسها حتى في ايامها الاخيرة . انهدمت قصور آمالها وضاع نفوذها وانخفض جناحها ولكنها مع ذلك لم ترض ان تقبض يد همتها عن شعبها ، اهالى قرطبة الجبوين منها .

(١) دوزى (٢) الامير على

الثاني والتسعين بعد الثلاثمائة خرج المنصور غازيا للمرة الثانية والحسين (١) لقمع فتنة بالقرب من مدينة سليم من ولايته قشتالة وقد أبدى العاصمون مقاومة كبيرة واشتد القتال حتى اضطر ابن أبي عامر للوثوب الى الصفوف الامامية (٢) مستتبلا والسيف بيده لبت روح العزم في أفراد جيشه وبعد كفاح شديد أحرزوا النصر ولكن بعد أن أصيب قائدهم المنصور بجراح بليغة ، استشهد على أنورها في الخامس والعشرين من شهر رمضان ودفن بمدينة سليم حسب وصيته

مات محمد المنصور وبموته فقد الاندلسيون ركنان من أركان شوكتهم ، توفي دجلهم العظيم وبوفاة انصديق بنيان اتحادهم فياهول المستقبل الخيف ، المستقبل المظلم الذي يهدد كيان الاندلس لبسوا عليه ثياب الحدا وشقوا الجيوب كما كان حزنهم وحداهم على نخس طالعهم الذي بدا في أفق السياسة . لم تمس صبيحة كثيرا بعد المنصور فقد توفيت في العام الثامن والتسعين (٣) بعد الثلاثمائة ، أي بعد تلك الذكبة بستة أعوام لقد تصالحا قبل وفاة المنصور ولكن صلحهما كان ظاهريا اقتضته الظروف والا فان

(١) تاريخ الاندلس لضيا باشا

(٢) ابن خلدون

(٣) قاموس الاعلام

الدموع التي ذرفها قد جعلت بينهما هوة من الآلام يصعب اجتيازها فالأعوام الأخيرة من حياتها مضت بين جدران الذسك والعبادة وقد كان لموتها صدى حزن عميق في نفس الشعب لا يقل أثرًا عن حزنهم لدى موت المنصور وقد رثاها كثير من الشعراء وفيهم ابن دراج حيث شبهها بنجمة الاندلس . حقا إن (صبح) كانت من أشد النجوم تألقًا في سماء الاندلس ، كان هناك أمل في أن تحيا الاندلس حياة رغدة ورفاهة طول حياتها أما وقد أفل نجمها ولم يبق أثر لسلطان المنصور ولا بأس الحكم ولا شوكة عبدة الرحمن ، فلم يبق أمام الاندلس سوى السقوط والاندحار لماذا ؟ لان الخلافة انتقلت الى يدهشام ، ذلك الخليفة الجبان العاجز الذي كان الاندلسيون يخشون حكمه ، وليس هيبة منه وإنما خوفًا من عجزه وضعفه .

لم تر صبيحة بعينها خاتمة قرطبة ، تلك الخاتمة السوداء التي تهز حتى اليوم أوتار القلوب في بلاد الاسلام بضربات الحزن والالام . لو قدر لها أن تعيش بضعة أعوام أخرى ل ترى تقسيم عاصمتها لانهمرت عينها بالدم بدل الدموع . ماتت دون أن ترى شيئًا من ذلك . ماتت في بيت الزهراء وهي تنظر الى نجمة تلمع على صفحة حوض من أحواض حدائقها الزهراء في مساء يوم لطيف حزين مؤلم ، وقد كان آخر المشاهد انطباعًا في نظرها ، منظر تلك النجمة التي تستخدم مرآة في أحواض بيت الزهراء